سجن الأفكار



سجن الأفكار



تأليف: داداو بلال

منشورات الأنيس

معلومات دار النشر

*نستيقظ كقذائف مدفعيّة مليئة ببارود اليأس، نتناثر أشلاء في صمت اللّيل، أخذتم منّا لحظات الفرح، ولكن لم تسلبوا الأمل، عندما طلبنا من الحياة أن تضمّنا، رفعت أطرافها وتجاهلتنا، وعندما بحثنا عن الحبّ، وجدنا الفقراء غير مرحّب بهم في أزقّة العشق، في كلّ ليلة، نواصل النّحيب ونبحث عن بريق ضئيل في الظّلام، هكذا نواصل رحلة البؤس، نغنّي في مواجهة الظّلال، نبكي على أطلال الأحلام، كمسافرٍ لا يعرف وجهته، لكنّه لا يزال يتطلّع إلى الأفق، هذا الكتاب صرخة عالقة بين شقوق الخذلان والبحث المستمرّ عن نور في أعماق الظّلام.

إهداء:

-إلى أمّي وأبي، اللّذين نشرا في كياني الحيرة والدّهشة، وجعلاني أؤمن بأنّ الحياة ليست سوى سلسلة من الفشل المدهش وعلّماني أن أضحك عليها.

-إلى إخوتي، الّذين حوّلوا المنزل إلى مسرح لمشاهد عبثيّة، وأظهروا لي بوضوح أنّ جيناتنا تحتوي على حسّ الفكاهة القاتمة أكثر من أيّ شيء آخر.

-وإلى صديقي الّذي خفّف وطأة كلّ شيء بقليل من الجنون ونصيحة غير متوقّعة في لحظات الهاوية.

هذا الكتاب لكم، فإمّا أن تروه كتحفة أدبيّة أو كوسيلة فعّالة لإنهاء الجدل حول من يضبط من.

المقدّمة:

أتعس أنواع السّجون هو سجن الأفكار، حيث يضيق العالم بأسره ليصبح مجرّد مساحة ضيّقة محصورة في زنزانة عقليّة، هؤلاء الّذين يسجنون أنفسهم في دائرة مغلقة من الأفكار، يتقوقعون داخل جدرانٍ منطقيّة ضيّقة، محكومين بتصوّرات تضيق الأفق وتقلّص الحياة إلى مجرّد مواقف ثابتة، في هذا السّجن يصبح العقل هو الجلّاد والقاضي والمُدان، حيث يُحكم على ذاته بالتّقوقع في زوايا مظلمة لا مخرج منها.

لنتأمّل في معاناة من يسجنون أنفسهم في فكرة معيّنة، يعيشون محاصرين في حوادث وذكريات ومواقف لا يستطيعون التّخلّص منها، هنا، يبدأ السّجن الحقيقيّ، ليست الأبواب المغلقة ولا الجدران الماديّة هي ما تحدّد سجننا، بل هي القيود الّتي نضعها على أنفسنا، تلك القيود الّتي تمنعنا من التّحرّر والتّقدّم، نجد أنفسنا أحياناً عالقين في دوائر من التّفكير، حيث نعيد نفس الأسئلة ونفس التّحليلات، ولا نجد مخرجاً من هذا المستنقع العقليّ.

أنا بدوري وجدت نفسي محاصراً بين جدران أفكاري وتساؤلاتي، لم أستطع التّخلّص منها أو صرفها عن ذهني، لهذا السّبب قرّرت أن أدوّنها في هذا الكتاب، ربّما يكون هذا هو سعيي للتّخلّص من قيودها، أو ربّما هو محاولة لمشاركتها معك، عزيزي القارئ قد نجد معاً بعض الأصداء المشتركة، أو قد تعيش معي ذكريات تلك اللّيالي الّتي مضت، حيث تقطّعت بنا السّبل داخل هذا السّجن العقليّ.

دعني أخبرك، كلّ ما هو مكتوب هنا هو نتاج عقلي، هو تأمّلات وتجارب ووجهات نظر أراها من خلال نافذتي الخاصّة، قد أكون على صواب وقد أكون على خطأ، لكن في النّهاية هذا ما أراه وما أعيشه، ربّما تجد في هذه الكلمات مرآة تعكس بعض جوانب حياتك، أو ربّما تجد فيها سجنك الخاصّ الّذي يسجنك بين جدران أفكارك، في كلّ الأحوال لعلّ هذه الصّفحات تكون مفتاحاً لفهم أعمقٍ لأنفسنا، وسبيلاً للخروج من السّجون الّتي نضعها لأنفسنا.

معايير:

لا أفهم المعايير الّتي يتّبعها هؤلاء الأفراد في معاملتك بهذه الطّريقة، رغم أنّك تتحدّث معهم بأسلوب راقٍ وتعاملهم بلطف، إلّا أنّهم دائمًا ما يعاملونك بشكل ثانويّ ويستصغرون قيمتك، هذا يجعلك تشعر بالاحتقار لنفسك، لأنّك تحدّثت معهم وهم لا يحترمونك، على أيّ أساس يتصرّفون هكذا دائمًا؟

تلاحظ أنّهم يتحدّثون مع المدير بأسلوب أفضل من حارس البوّابة، حتّى لو كان الحارس يمتلك شهادات جامعيّة، ويتحدّثون مع الأستاذ بأسلوب أفضل من التّلميذ، حتّى لو كان الأخير عبقريًّا وينتظر مستقبلًا مشرقًا، ويعاملون ضابطًا بشكل أفضل من جنديّ، على الرغم من أنّ الجنديّ هو من يتعرّض للخطر من أجل وطنه، هذه المعايير تثير القرف في نفسي، لأنّها تركّز على المال والمنصب والأولويّة، حيث يكفي أن تولد قبل أخيك بدقيقة

واحدة لتحظى بمعاملة أفضل منه، فتلك الدّقيقة تصبح بصمة عار على شخصيّتك.

يكفي أن يكون لديك رصيد ماليّ كبير حتّى يسمّوك بلقب "الحاج" ويتغنّون بكلامك، على الرّغم من أنّهم لم يستفيدوا من أموالك، ويكفي أن تكون ابن فلان فقط، وستلاحظ كيف يقبلون عليك ويصافحونك ويسألونك عن كلّ أحوالك، يكفي أن تكون ابن فلان لتلاحظ كم سيحضرون جنازتك، أمّا الفقير فسيقولون: "رحمه الله، وددنا أن نحضر لكنّ العمل والأسرة والظّروف شغلتنا عن ذلك".

هذه الفئة، أظنّ أنّ أنفسهم تميل إلى الإذلال وتبحث عن الاحتكاك بمواطن القوّة، نظراً للضّعف الّذي يشعرون به، تراهم يصاحبون أصحاب المال والمنصب ويعطون تركيزًا أكبر لهم، رغم أنّهم فقراء ويتهافتون على أصحاب المال والمنصب ويتنافسون على من يعزمهم إلى وليمة، رغم حاجتهم إلى ذلك، فقط لإرضاء أنفسهم والاعتقاد أنّهم ذوو فائدة بالنّسبة لهم، ناسيين أنّ هذه الفئة ليست بحاجة إلى معروف أو أيّ شيء، رغم ذلك وجدت أنّ هذه الفئة انغمست تمامًا في دور الشّهرة والقوّة، فتراهم يتصدّقون فقط ليقولوا إنّ فلانًا قد تصدّق، ويجلسون في مجامع

الفقراء كي يتكلّموا بحريّة، لأنّهم يعرفون جيّدا أنّ كلّ شخص من تلك الجماعة متلهّف لأيّ كلمة قد يقولها السّيد فلان، لأنّ السّيد فلان قد أعطاهم من وقته الثّمين وجلس معهم، بل تراهم يحفظون كلّ ما يقوله ويعتبرونه حكمة ثابتة، وكلّ ما سيقوله السّيد فلان هو صحيح، بل ويعدّونه معلمة سينقلونها إلى أبنائهم وعائلاتهم، وعند الجدل يقولون لك: "هل تعلم أفضل من السّيد فلان؟"، فقط لأنّه يملك المال أو المنصب، وأنت لا تملكه.

لا أتّهم تلك الفئة بشيء، فهم ضعفاء، والضّعيف يجاور القويّ كي يشعر بقوّة أو مكانة، لكن مثل هذه الحالات قد زادت من غباء الفئة القويّة وجعلتهم يظنّون أنّهم ذوي أهميّة كبرى، فتراهم يتكبّرون على الفئة البسيطة، فيظنّ رئيس البلديّة نفسه والي الولاية، فلا تستطيع حتّى أن تأخذ معه موعدًا، ويقوم نائبه الّذي يظنّ نفسه رئيس البلديّة أيضًا بطردك من البلديّة، وهذا ينطبق أيضًا على الوالي وصولًا إلى رأس الهرم الإداريّ، ولا ننسى عمال النّظافة في المستشفيات؛ الّذين قد يظنّهم البعض ممرّضين في البداية، فتجدهم يطردون المرضى ويتحدّثون بوقاحة معهم رغم أنّهم ليس لديهم الحقّ في ذلك، كما يسقط هذا المعيار على الممرّضين الّذين يتقمّصون دور الأطبّاء فقط لأنّهم يرتدون

ملابس مشابهة، للأسف، الفئة الفقيرة لا تميّز بين الممرّض والطّبيب، ممّا يجعل الممرّض يعيش بحريّة في دور الطّبيب ويشعر بالقوّة، لكن هذه اللّذة تنتهي عندما يناديه الطّبيب.

حتّى صاحب المحل عندما يدخل عليه شخص ذو قوّة تجد أنّه يسيء معاملة العامل لديه أو يأمره بعمل شيء فقط ليظهر للقويّ أنّه أيضًا له سلطة، حتّى لو كانت على شخص واحد فقط، هذا النّقص الّذي يشعر به عند رؤية شخص أفضل يجعله يبحث عن موطن قوّة في محيطه، فتجد أنّ كلّ فئة تمارس القوّة على الفئة الأقلّ منها، وكلّ فئة ضعيفة تريد أن تنتمي إلى الفئة القويّة حتّى ولو بالإذلال، وهذا ما خلق معايير وتصنيفات مشوّهة وغير متكاملة وأدّى إلى اختلال في العلاقات الإنسانيّة.

أين نحن؟

هل شعرت يوماً أنّك لا تنتمي إلى المكان الّذي تعيش فيه؟ هل قلت لنفسك يوماً ما أنّك لا تنتمي إلى هؤلاء الأشخاص؟ أنا أعيش هذا الشّعور كلّ يوم، تدفعني إنسانيّتي إلى الجلوس مع أشخاص لا أستطيع البقاء معهم أكثر من دقائق، أراقبهم وأنتظر وأتمنّى أن يتحدّث أحدهم عن شيء أحبّه أو موضوع مهمّ، أترجّى فقط أن يتوقّفوا عن انتهاك أعراض النّاس والسّخرية من كلّ ما يحيط بهم، أنا في بلادي ومع ذلك أشعر بالغربة، ليس لديّ شعور بالانتماء إلى المكان الّذي أعيش فيه، كلّ يوم أقاوم وأحفّز نفسي للتّعامل مع نفس الوجوه ونفس الملامح، وأضطرّ إلى سماع نفس الكلام ونفس الفرضيّات.

هذا الشّعور كأنّك تشاهد نفس الفيلم كلّ يوم إلى درجة أنّك حفظت أسماء المصوّرين والمصمّمين والمخرجين، بينما أنا حفظت كلّ تفصيل حولي وكلّ شخص من حولي، لم أعد أستطيع

الخروج من المنزل ومواجهة هذه المخلوقات الّتي تبعث الطّاقة السّلبيّة بكلّ اندفاع، بوجوههم الخبيثة وابتساماتهم الّتي تثير في النّفس مزيجاً من الكآبة والقرف، بالإضافة إلى كلامهم الّذي يجعل كلّ عضلة في جسدك تشعر بالاشمئزاز لأنّك تحمّلتها، لم أعد أستطيع تحمّل استوديوهات التّحليل الّتي تنتقل إلى المقاهي، حيث يتحدّثون عن كلّ شيء ويدّعون الحكمة في كلّ شيء، تراهم أطبّاء يعالجون، ورياضيّين يحلّلون، وأئمّة يفتون، وسياسيّين يعلمون كلّ شيء ويستخلصون كلّ شيء، هم الصّواب وأنت الخطأ، هم العلم وأنت الجهل، يسبّون عمال النّظافة لتأخّرهم وهم من يلقون القاذورات من شرفاتهم وسيّاراتهم، يشتكون من غلاء الأسعار اليوم ويتشاجرون على شراء السّلع غداً، يسبّون نظام دولتهم صباحاً وهم من يسرقون جيرانهم ليلاً، يشتكون من غياب نظافة الشّوارع وهم من يتبوّلون على جدرانها ويقتلعون شجيراتها ويكسرون زجاج مصابيحها، ينكرون المرض، وعندما يموت قريب لهم بسببه يؤمنون فجأة.

وداخل كلّ هذا يتملّكني أسف لصاحب المقهى الّذي يدفعون له ثمن قهوة واحدة بينما يجلسون ساعات عديدة، لا أعلم كيف يصمد صاحب المقهى أمام كلّ هؤلاء، لكنّي متأكّد أنّه يشتمهم

ليلاً ونهاراً، أنا آسف على تلك الـ20% من الذّكاء الّتي تمتلكها عقولهم، لأنّها أكيد لا تُستخدم، لم أفهم تماماً كيف يفكّرون، لكنّني أعلم أنّهم يتحدّثون فقط ليتحدّثوا، وليس لديهم أيّ نسق معين، فقط العبثيّة تفوح منهم، والمشكلة تكمن في أنّك لا تستطيع إقناعهم بأنّ يرفعوا من مستواهم لأنّهم مقتنعون بأنّهم في مستوى أفضل، هنا يجب عليك أن تأخذ حجرًا صحيًّا بعيدًا عنهم طوال حياتك، لأنّهم فيروس خطير وأكيد سيؤثرون عليك متى صحبتهم، فعليك بالحذر.

هنا ستعلم أنّه ليس الجنود من يحاربون فقط، بل أنت أيضاً ستحارب ضدّ هؤلاء الأشخاص، ستعلم أنّه ليس الفقر فقط من يجعل الحياة صعبة، بل النّاس أيضاً، فهل من مخرج يا ترى؟

أنت والآخرين:

أغرب ما يكون عزيزي القارئ هو أن تجد نفسك تحت الصّفر مهما كانت مكانتك أو صفتك أو اسمك، ستجد نفسك دائم الحذر في كلّ شيء؛ طريقة كلامك مع النّاس، طريقة جلوسك معهم وحتّى نظراتك إليهم، ورغم كلّ هذا سينتهي بك الأمر في نهاية المطاف لتكون ضحيّة إهمال أو سوء تفسير، ممّا يجعلك تتخبّط بين سطور كلماتهم المبهمة والجارحة حتّى يجرّدوك من إنسانيّتك ويتركونك تتخبّط بين وسوسات عقلك.

ستخطو خطوة تلو الأخرى، خطوات ثابتة وحذرة نحو طريق النّجاح، حتّى تظنّ بالكاد أنّك محظوظ وقد بذلت كلّ هذه الجهود الّتي أنهكت كيانك العقليّ والنّفسيّ، ثمّ تلتقي بهم وسيحاولون بشتّى الطّرق تحطيم عزيمتك وبثّ القلق والخوف فيك، حتّى يحشروك في الزّاوية المظلمة، سيحاولون أن يفقدوك ثقتك بنفسك، وهذا هو الأهمّ، لا أستطيع أن أنكر أنّهم درسوا مثلما

درست وبذلوا جهداً أكبر من جهدك، لكنّ الفرق هو أنّك درست لتنجح وهم درسوا لكي يفشلوا النّاجحين أمثالك.

ستقول لن أعيرهم اهتمامي، هل هذا صحيح؟ لن تهتمّ بنظراتهم السّوداء الّتي ترى من خلالها جرعات الحسد والبغضاء نحوك؟ أكيد، لن تهتمّ في البداية، هل ستؤثّر فيك كلماتهم حولك وهم يصفونك عكس ما أنت عليه ويدسّون على اسمك وشرفك ومستواك بمجرّد أنّك أفضل منهم؟ لن تهتمّ، حسناً، لكن إلى متى؟ فأنت لست إنساناً مجرّداً؛ لديك قلب، وأحاسيس، وعواطف، وما يتملّكك من الفرح والغضب، من المؤكّد أنّك غضبت منهم، لكنّك لم ترد إظهار ذلك، ستدفن غضبك داخلك، يومًا بعد يوم، وجسدك يحتمل كلّ تلك الكمّيّات من الغضب والحزن حتّى تنخر جسمك وتتحوّل إلى شخص جامد.

تسأل: ما هو الحلّ؟ الحلّ لن تجده هنا، ولن تجده في كتب علم النّفس لأنّها لن تنطبق على هؤلاء الأوغاد الّذين يتحوّلون مثل الحرباء ويغدرون مثل الثّعابين، بل ويطلقون رائحة الحقد كالضّباع، لذلك لن ينطبق عليهم علم النّفس، حتّى أنّك لم تعد تعرف الطّيّب من الخبيث، فما أدراك بكتاب يعرفهم؟ ستجد الحلّ بنفسك، أمّا أنا فأكتفي بالكلام فقط.

خيوط الحبّ:

سيبدأ الأمر بجرعة من الأمل تمهّدك تدريجيّا لتتعلّق بذلك الشّخص، لتليها جرعة من الحبّ تتركك تترامى بين أفكارك ومشاعرك، ستقرّر بعدها الاقتراب من ذلك الشّخص، لأنّك لم تعد تستطيع إنكار فكرة أنّه بعيد عنك أو أنّك بدأت تحبّه منذ الوهلة الأولى، فتقرّر مصارحته بمشاعرك الّتي نالت منك قبل فترة، لتجد أنّ ذات الشّخص لديه مشاعر تجاه شخص آخر، فينتهي الأمر بجرعة من الخذلان، تحاول أن تنسى أنّك أحببته ذات مرّة، ولكن هيهات، لأنّ ذلك الشّخص قد شطر منه انزلق داخل أفكارك وأبى أن يخرج منها، وشطر آخر انسلى داخل هرموناتك وسيطر على أحاسيسك، وشطر آخر أصبح جزءاً من ماضيك وحاضرك، وسيصبح مستقبلك، لذلك أنت الآن معنا في قائمة المخذولين في الحبّ.

كثيرون من خذلهم الحب وكثيرون من رأوا في الحبّ ومضات أمل وسلام أوهمتهم أنّهم سيحلّقون عالياً نحو السّماء، ظنّوا أنّهم وجدوا شريك حياتهم، وصارت عقولهم الباطنيّة تنذرهم بأنّه دون شريك حياتهم لن يذوقوا طعم السّعادة، مثل الأسطورة المتداولة بينهم أنّ الإنسان قديماً كان قويّاً لأنّه خُلق بأربعة أعين وأربعة أذرع، وبُثّت فيه روحان، فتجبر على آلهته ظنّاً منه أنّه أقوى، ولذلك عاقبته الآلهة فقسّمت كيانه إلى نصفين وفصلتهما بين المشرق والمغرب، ومنذ ذلك الحين صار الإنسان يبحث عن روحه الثّانية.

أذكر ذات مرّة أنّ صديقاً لي من أيّام الدّراسة جاء إليّ مخموراً يترنّح هنا وهناك، كنت أعلم أنّه جاء ليلقي بهمومه عليّ، لأنّي كنت دائماً الشّخص المتلقّي، الّذي يسمع أكثر ممّا يتكلّم، وهذا يساعد كلّ النّاس؛ فمن لا يحبّ أن يشكي ولا يشكى له؟ فبدأ يحدّثني عن قصّته مع حبيبته، وللأمانة سأقول ما قاله حرفيّا: "أنا هنا بسببها هي، تلك العاهرة الّتي فضّلت عملها على الزّواج بي، كانت تقول إنّها تحبّني ولا تريد مفارقتي وأنّني أعني لها كلّ شيء، حتّى أكملت دراستها وحصلت على منصب مرموق، ومن ثمّ تغيّرت شيئاً فشيئاً، اختفت جمرة الحبّ بيننا واختفى كلّ ذلك

الدّلال وكلّ الوعود وزادت المسافات بيننا، فهل كانت تحبّني حقّاً أم كنت مجرّد حبر على ورق؟ تبّا لها"...

لم أكن من أنهى كلامه، بل سقط على الأرض ونام، لكن لم أندهش ممّا قاله، لأنّك أنت يا صديقي لم تكن حبرًا على ورق ولكنّك أصبحت قديماً، وقد رأت الجديد أمامها فاستبدلتك، أنا لا أبرّر لها، ولكنّني أتكلّم بواقعيّة؛ أنت تعلم أنّ الإنسان أنانيّ، يحبّ نفسه أكثر من غيره، فأكيد ستختار عملها رغماً عنك، هي تتذكّر جيداً أنّك كنت معها في أيّام ضعفها، لكنّها اختارتك ألّا تكون في أيّام قوّتها حفاظاً على كبريائها، لذا ستتخلّى عنك وتتشبّث بعملها ومنصبها، أنت كنت مجرّد ربّة منزل بالنّسبة لها، حافظت عليها وربيّتها لتتركها لمدير الشّركة الّتي تعمل فيها أو زميل يعمل معها، لأنّه لديه بعض الأموال وربّما سيارة إبيزا، أمّا أنت فلديك سوى 1000 دج، لا أعرف إن كنت ستصرفها على زجاجة خمرك أم على سيّارة الأجرة وقطعة شوكولاتة ميلكا الّتي والله لم تذقها حبيبتك في حياتها، لكنّها تطلبها منك لأنّها فتاة وتحبّ أن تدلّل نفسها على حسابك.

الكثيرون من أمثالك ظلمهم الحبّ وتغيّرت نظرتهم إليه، ليختفي داخله ذلك الإحساس الرّائع والإنسان الحنون، فيعاهدون

أنفسهم أنّهم لن ينخدعوا مرّة أخرى تحت قصيدة "ما بقاش الأمان في بحر الحبّ"، أي لم يبقَ الأمان في بحر الحبّ.

فتقولون إنّ الشّباب خداعون وهمجيّون وأكثر من ذلك، ولكن لم تسألوا من سبب لهم ذلك؟ وأنا كما عنيت الشّباب في كلامي، فالفتيات لم يسلمن من الشّباب أيضاً، كلام بذيء وضرب وشتم وتعدٍّ أصبحت الفتيات تتعوّدن عليه، لكن كحلّ للمشكلة تجد الفتاة تحبّ ذلك أيضاً، وإذا رأيت شخصاً يضرب فتاة، كنصيحة لا تدخل في شأنك في ذلك، لأنّك ستسمع المقولة الشّهيرة: "واش دخلك؟" أي لا يعنيك أمري.

شابّ عاجز:

أصبحنا نستيقظ كقذيفة مدفعيّة مملوءة ببارود اليأس والخذلان، تلك القذيفة الّتي تسيل دموع حاملها وتنثر أشلاء جسمه، ككلّ شخص أنتم قتلتم الرّغبة فينا، ولكن لم تقتلوا الأمل، أنتم أخذتم من اللّحظات الجميلة، لكن لم تأخذوا الزّمن.

تقولون لنا دائماً: ارضوا بما عندكم، لكن ليس لنا ما نرضى به، حتّى الهمّ لم يرضَ بنا، ولمّا أردنا من الحياة أن تضمّنا رفعت أطرافها، وحتّى لمّا أردنا من الحياة أن تغنينا، فقرت بعدها، ثمّ قلتم: ابحثوا عن الحبّ فهو السّعادة، فذهبنا وعيوننا لا تكاد تفارق الأرض، لأنّنا تعوّدنا على الخذلان، فوجدنا أنّه لا يوجد مكان للفقراء في أزقّة الحبّ، فأكملنا نحبنا كلّ ليلة وغنّينا عند كلّ جذوة مال لفقراء نصيب مقتدر.

الشّاب الجزائريّ، كلمة سمعتها آلاف المرّات عبر القنوات التّلفزيونيّة والجرائد، الشّاب الجزائريّ الّذي اختار الهجرة كآخر

حلّ له، ابتداءً من العامل البسيط حتّى العالم الكبير، اختلفت أنواع الهجرة، لكن بقي الهدف واحد، وهو مغادرة الوطن، بينما اختار البعض أن تكون المخدّرات والكحول حلاًّ مؤقّتاً لكي ينسى ما عاشه أو أقول ما سيعيشه، لأنّه سيرى أكثر من ذلك، البعض يقول إنّ هؤلاء الشّباب هم مجرّد جبناء هربوا من الواقع واختاروا عدم مواجهته، أمّا البعض فقالوا لي: "والله لو سنحت لنا الفرصة لركبنا معهم إلى طريق البحر، لكنّنا اخترنا أن نركب المريخ"، وأخذوا يتبادلون سيجارة من المخدّرات ويضحكون، لم أعلم إن كانوا يضحكون على سؤالي أو على حالهم أو إنّهم يضحكون ويظنّون أنّهم يقضون نحيبهم، فمتى بدأ كلّ شيء إذن؟

قيل إنّ أحلام النّاس تنتهي قبل أن تتحقّق، يبدأ الشّاب دراسته من سنته الأولى حتّى آخر سنة له في الجامعة، وهو يظنّ أنّه يقترب من أحلامه والحياة الرّغدة رويداً رويداً؛ عمل، ثمّ سيّارة، ثمّ زوجة، لكن سيبدأ الأمر عندما يتخرّج ذلك الشّاب فيغدو من دون بصيرة، وتغيب الرّؤى الكبيرة ومجالات الكثيرة والأحلام المتعدّدة، يرى سيرته الذّاتية تُستخدم عند بائع الكوكاو، أو عندما يرى نفسه جالساً مع أشخاص كان يراهم طوال سنوات دراسته جالسين عند حائط الحاج محمد المكتوب فوقه: "لا ترموا الفضلات

هنا"، فيتخيّل بعد ذلك أنّه مكتوب: "لا ترموني هنا"، سيشبّه نفسه بالفضلات، دون عنوة، لأنّ عقله لم يتقبّل مصيره، هذا الشّاب الّذي أخذ شهادته في عزّ شبابه، لكنّ قلبه لم يبقَ كذلك، أنهكته الظّروف والمشاكل من مصاريف النّقل والطّعام واللّباس ومهانة الفقر الّتي تبعث فيه إحساساً بالحاجة كعار دائم، لم يكن كغيره، كان يحتار كثيراً في كيفيّة صرف ماله، عكس أولئك الّذين يحتارون إن كانوا سيأكلون في مطعم ذو طابق ثاني أو ثالث، أو أن يأكلوا شاورما بدل بيتزا، عكسه هو الّذي سئم من الكرنتيكا حتّى أصبح يتغنّى بها في منامه.

ستنتهي صلاحيّة ذلك الشّاب قبل أوانه ويصبح القلق عدوّه، كيف لا وهو يبقى في منزله أكثر من أخوته؟ لن يهتمّ لا هو ولا أهله في البداية، لكن يومًا بعد يوم سيسأم والديه منه حتّى هو سيسأم من نفسه، تتوارى الأسئلة من ورائه ومن أمامه: أين هو الحلّ؟ ماذا سأفعل؟ متى سأستطيع ردّ دين والديّ؟ إلى متى سيتكفّل أبي بي؟ ومتى؟ وكيف؟ ولماذا؟ كلّها سموم ستقرع باب رأسه، لذلك سيحاول رفع معنويّاته مع القليل من عسل الأمّ والأب، طالبين منه الصّبر وأنّ الفرج آتٍ، وهم يعلمون أنّ احتمال ذلك 49%، لكن ماذا يفعلون وهم يرون ابنهم ينحدر نحو

الهاوية؟ بعدها يحاول ذلك المسكين أن يعمل كعامل عاديّ، خاضعاً لكلّ ما هو أمامه فقط كي يهرب من شيء اسمه العار، سيعمل ويعمل ويتلقّى الأوامر من شخص مستواه لم يتعدَّ السّنة الخامسة ابتدائي، ويعمل مع أشخاص لن يفهم ما يتحدّثون عنه لأنّ كلامهم لم يتعدَّ مفهوم الثّقافة اللّغويّة، سيراهم يضحكون عليه ويفرحون لأنّهم يرون شابّاً جامعيّاً يعمل معهم ويقولون مقولتهم المشهورة: "اللي قرا قرا بكري"، أي الّذي درس درس قديماً، فيحمد غيضه ويغادر مكان العمل في آخر اليوم ومعه 1000 دج ليعطيها لأمّه عسى أن تفرح بها وجسمه كلّه تعب كأنّه تلقّى ألف ضربة، وفي النّهاية لن تقبل أمّه ذلك لأنّها تعرف أنّه أحوج منها إلى ذلك المبلغ الّذي لا يكفي حتّى ليحلق رأسه ولحيته الّتي غزت وجهه الكئيب.

سيتقبل مصيره ويضع حداً لأحلامه ليصبح شخصاً مكتئباً، لا يضحك ولا يفرح، دائم الانتظار للمصائب والخيبات، ولا ينتظر أيّ مفاجآت لأنّه يعلم أنّ عهده قد انتهى وأنّه قد حلم مرّة ونال عكس ما تمنّى، هنا سأكتفي وسأترك قلمي، لأنّي جزء من ذلك الشّاب فقد غلبت المشاعر على كتاباتي.

لكن هل سنرضى بذلك؟ لماذا نحن دائماً هكذا؟ لم نتغيّر ولا حتّى لبرهة من الزّمن، أصبح بعضنا يشتم بعضه الآخر، كيف لنا أن نختار طريق التّحيب بدلاً من أن نستيقظ من غفوتنا ونسير إلى الأمام؟ صرنا نرى الحياة بالأسود فقط، أين اختفى اللّون الأحمر؟ لون الحبّ، وأين مضى اللّون الأخضر؟ لون الأمل، واللّون الأصفر؟ لون الأحلام، ألم نسأل في قرارة أنفسنا أنّنا نحبّ لعب دور الضّحيّة وندّعي المثاليّة ونحن غير ذلك؟ نحن مثل تلك المرأة الّتي هجرها زوجها فأمضت عمرها وهي تبكي على زوجها بدلاً من أن تتزوّج مرّة أخرى وتشعر بالسّعادة.

الظّروف، المجتمع والنّاس هي ارتباطات، ربّما أو أكيد أنّها عائق أمام أحلامنا، لكن أنا وأنت وكلّنا، نحن السّبب فيما يحدث، فكفى أعذاراً ولننهض على أقدامنا، لأنّه ما دمنا نتنفّس هناك فرصة، ما دمنا نسير فلنسر نحو أحلامنا، هناك مشكلة لم تستطع حلّها؟ ابحث عن مشكلة أخرى وجرّدها من فكرك، إذا انغلق الطّريق أمامك سر نحو طريق آخر، ليس بالضّرورة أن نجد ما حلمنا به، لكن لا تترك هذا يثبت عقلك ويجمد جسمك، تحرّر وكفى أعذارا، أنضج، تعلّم وكن معاً في كلّ لحظة، ضحكة، ودمعة.

أنت تقول الآن إنّ لدي تناقضاً في كلامي**!** فكيف أعرف أنّ الأمر ليس بيدك؟ ها أنا أعطيك من التّنمية البشريّة نصيباً مقتدراً، لكن كان لا بدّ أن أعطيك ضربة تهزّك وتوقظك من غيبوبتك، رغم أنّني لا أحبّ الكلمات المبتذلة الّتي تجعل كلّ شيء سهلاً، لكن يا صديقي، اهتم لأمرك.

ما بعد الأحلام:

كثيراً ما نسمع أشخاصاً يقولون: "أهذا هو الزّواج؟ لم أتخيله هكذا!" أو "هل هذه هي السّيارة الّتي كنت أحلم بها؟ لم أتوقع ذلك!" أو "هل هذا هو شعور الغربة؟" وغيرها من الأسئلة الّتي تثير تساؤلاتنا وتدفعنا للتّفكير والتّحليل، وعندما أمعنت النظر في هذه الأسئلة وجدت أنّهم محقّون في تساؤلاتهم وشعورهم بالغرابة، فهل تساءلت عن السّبب؟

في بادئ الأمر، نطمح لتحقيق بعض الأحلام ونسعى جاهدين لذلك، نتعلّق بأحلامنا كطفل يتعلّق بأمّه، بل أكثر من ذلك، نشعر أنّنا على قيد الحياة ونحن نتنقل بين مطبّات الحياة، وكلّ ذلك في سبيل تحقيق رغباتنا، لكن عندما نصل أخيراً إلى ما كنّا نريده، نشعر بأنّنا لم نعد راضين بعد، يختفي الشّعور الغريب الّذي كان يرافقنا عندما كنّا نتذكّر أحلامنا، ونكتشف أنّنا لم نكن نتمسّك بالأحلام ذاتها، بل كنّا متمسّكين بفكرة أنّه يجب علينا تحقيقها.

كنّا نرى في تلك الأحلام هدفاً بعيداً لأنّنا لم نذق طعمه ولم نرَ قربه منّا، ولم نشم رائحته، كان كالحلم بعيد المنال، لذلك كان يبدو لنا أكبر ممّا هو في الواقع، لهذا من الأفضل أحياناً أن نبسّط الأمور، نقلّل من قيمتها، ولا ننسى أن نستمتع بالمنعرجات الّتي نصادفها ونحن نسير في درب أحلامنا، لأنّنا قد نجد ضالّتنا في تلك المنعرجات ونحن لا ندري.

زوج وزوجة:

الطّلاق كلمة أصبحت كالنّهاية الآجلة أو العاجلة للزّواج، وصارت مصدر خوف لكلّ من هو مقدم على الزّواج، الزّوجة تقول والزّوج يقول، وكلاهما مخطئ، فمتى انتهى كلّ شيء؟ وبسبب من؟

قبل الزّواج نجد الحبيبين قد امتلأ قلبهما شغفًا بالحبّ وتقاربت الأرواح وارتبطت القلوب، كلّ واحد منهما يقول للآخر: "أنت أملي، بدايتي ونهايتي، أحبّك وأريد أن أعيش معك لأنّي وجدت ضالّتي"، إلى أن يقرّر أحدهما دخول قفص الزّوجيّة ويشتريان ذلك الخاتم الّذي يشبه عهدًا بأن يحبسوا أنفسهم إلى الأبد، ذلك الخاتم دليل على أنّ الرّجل سجن للمرأة، والمرأة سجن للرّجل، كلّ واحد منهما يدخل القفص الذّهبيّ وهو لا يعلم أنّه قفص سوداويّ سيجعل كليهما حبيسيْن مثل العصفور، ولا يهمّ ماذا يعني الأوّل للثّاني.

بعدها لن يعرف كلاهما كيف سارا نحو هذا الطّريق، ومتى بدأ كلّ شيء بينهما ينهار بسرعة، يتساءل الزّوج: "أين حبّنا الّذي كنت أظنّ أنّه سيرتوي من نهر لا ينضب أبدًا؟ وأين تلك اللّمسات الخفيفة الّتي كنتِ تداعبينني بها؟ وأين صارت همساتك الّتي كنت أستيقظ عليها يا زوجتي؟ لماذا كان حبّنا شديد الهيجان قبل زواجنا؟ فما الّذي غيّرنا بعد الزّواج؟".

أمّا الزوجة فتسأل: "ما الّذي تغيّر فيَّ يا عزيزي؟ كنت ملكة في عينك، كنت الأمل والحبّ والسّلام، كنت أسمع كلمة أحبّك عشرات المرّات، أمّا الآن فلا أسمعها سوى مرّة، أين دعابتك وأحضانك؟ أين اختفى اهتمامك بي وحبّك لي؟".

هنا سأجيب لأنّي أكتب لأتكلّم، بالتّأكيد حبّكما كان مجرّد لذّة التّجربة الأولى أو وهج الانطباع الأوّل، أمّا عذاب الفراق والشّوق بينكما فقد اختفى بعد أن أصبحت له وأصبح لك، زواجكما انتهى بمجرّد أنّكما بدأتما تريان الاختلافات بينكما كتضادّ وليس تكاملًا.

أنتِ تسألين ما الّذي تغيّر؟ تعاهدتما على أن تحبّا بعضكما حتّى الموت، لكنّكِ أصبحتِ كلّ يوم تبحثين عن دليل على أنّه لا

يزال يحبّكِ، ألم تعلمي أنّ حضنه لكِ هو حبّ؟ أليس عمله من أجل مستقبلكما هو حبّ؟ أليس طفلكما هو شرارة الحبّ الّتي نشأت بينكما؟ أم تريدين سماع كلمة "أحبّك" منه كلّ يوم؟

أظنّ أنّ زوجك تعب يا عزيزتي، تعب لأنّه أصبح المموّل الرّئيسي في المقام الأوّل، وأبًا في المقام الثّاني، وزوجًا في المقام الثّالث، أنتِ لم تنتبهي، لكن ربّما لم تعودي تدلّلينه كسابق عهدكِ، وبعدها تلومينه بأنّه أهملكِ، كيف لا ترين بأنّه يغار عليكِ ويحنّ عليكِ، لكنّكِ كنتِ مشغولة بالأعراس والمشتريات والذّهب والقيل والقال مع الجيران بدل أن تهتمّي به، كنتِ تضغطين عليه فقط ليصبح مثل زوج جارتكِ الّذي وصفته بالمثاليّ في إحدى جلساتها معكِ، أو مثل زوج أختكِ، لكن لا تعلمين أنّه لا يوجد من هو مثاليّ، فالكلّ يدّعي السّعادة، لكنّكِ حملتِ كلماتهم وأردتِ إثبات أهمّيتكِ على حساب زوجكِ، وبدل من أن تساندي زوجكِ في مصاريف الحياة، كنتِ تندبين وتصرخين من أجل إحضار فستان ربّما كي تتبخري به أمام أقربائكِ مرّة وتتركيه داخل خزانتكِ إلى الأبد، وتطلبين شراء اثنتين أو ثلاث حقائب وأنت تعلمين أنّك تحتاجين واحدة فقط.

ولا ننسى بأنّكِ يا عزيزتي المدلّلة لم تعودي تتزيّنين من أجل زوجكِ، كيف لا وأنتِ مثل مارلين مونرو خارج بيتكِ، وتفوح منكِ روائح العطور الّتي تخيل لمن يشمّها بأنّه في باريس، لكن زوجكِ المسكين سبّبتِ له مرض الرّبو بسبب رائحة البصل والثّوم، ولا أقول إنّ من العيب أن تفوح منكِ تلك الرّائحة فأنتِ تطبخين لزوجكِ، ولكِ أجر ذلك، وطوبى لكِ واحترمكِ لذلك، فأمّي تطبخ لنا، وأختي تطبخ لنا، لكن كان بالإمكان أن تغتسلي وتتعطّري كلّ ليلة من أجل زوجكِ.

أمّا أنت يا عزيزي، ألا تعلم أنّ داخل كلّ امرأة فتاة صغيرة تحب الدّلال؟ فزوجتك تطلب منك ذلك لأنّها تحبّ ذلك، ولكي يطمئنّ قلبها بأنّك لا تزال تحبّها، الزّوجة هي زوجتك وأمّ أولادك، لذا لست الوحيد في حياتها، ولن تهتمّ بك طوال اليوم، حتّى هي تحتاج إلى من يهتمّ بها في المقام الأوّل، لأنّك أنت سندها وقوّتها، هي ضعيفة، حنونة، حسّاسة المشاعر، فلا تعاندها، اسمع أكثر ممّا تتكلّم معها، إن عاكرت محبوبتك ستظهر زوجتك، وإن عاكرت زوجتك ستظهر أمّ أولادك، وإن عاكرت أمّ أولادك ستظهر أمّها يا عزيزي، وهنا ستنتهي اللّعبة.

أظنّك لم تفهم علاقتك بعد مع زوجتك، أنت لم تجلب خادمة إلى البيت، فلا ترى في زوجتك أكلاً وشربًا فقط، لها واجبات عليك، نعم، لكن لديها حقوق أيضًا، لكن عندما تحضرها إلى بيتك وترسم لها خريطة تسير عليها من البيت إلى الحمّام ومن الحمام إلى البيت فقط، هنا بالتّأكيد ستسأم منك، وأنا لا أقول أن تترك كلّ الحرّية لها، بل احكم عصاك من المنتصف، إذا ارتخت فشد، وإذا شدت فأرخ.

يقولون الحبّ هو تضحية المرأة من أجل الزّواج، والزّواج هو تضحية الرّجل من أجل الحبّ، لذا أنت في بادئ الأمر ضحيّت بنفسك بدافع الحبّ أو الشّهوة، ولا تنسَ أنّه عندما تعاشر زوجتك فانظر لها بأنّها زوجة وليست حيوانًا، لا تكن حيوانًا، لا تسمح لغرائزك الحيوانيّة أن تطغى على ذلك، دائمًا هناك لمس وتقبيل وحضن وكلام قبل كلّ شيء، ولن أتطرّق لهذا كثيرًا رغم أنّي أعرف عنه كثيرًا، إلّا أنّه ليس مجالي.

موت أحدهم:

في ذاكرتي ألف حكاية فراق، أرويها على قلبي مساءً لأواسيه بها حتّى لا يقتله الألم، نشتاق لمن هم تحت التّراب، وشوق الحنين يغلّف قلوبنا، وعقولنا تأبى أن تنسى جروح الماضي، نتمنّى لقاء الأحبّة، لكن ما نحن ببالغيه.

عندما توفّي جدّي صباح عيد الفطر المبارك، تهاوى كلّ شيء بسرعة لدرجة أنّي لم أستطع تقبّل ذلك، توقّف الوقت ولم أستطع أن أمضي قدمًا أو أرجع إلى الوراء، اجتاحتني عاطفة التّأثّر، نعم، كان ضعيف الجسد، لكنّه جدّي، أعرف أنّه قويّ ولن يسقط بسهولة، فكيف يقولون إنّ جدّي قد مات؟ لم أستطع أن أحتوي مشاعري في قلب واحد حينها، مثلما لا يمكن لنا أن نجمع ضوء الشّمس في كأس واحد أو هواء الأرض في منديل واحد، خصوصًا أنّه كان الأقرب إلينا بقلبه وروحه النّقيّة، كنت أرى فيه

بركة العائلة دائمًا، بشوش الوجه ولا يحبّ القيل والقال، المسجد كان بيته، وصمته كان عزّته.

يقولون إنّ الوقت يشفي الجروح لكن هل سننسى؟ لا، هل نستطيع محو ذاكرتنا؟ لا، إذن لن تشفى الجروح، كيف لك أن ترى أعزّ أحبابك ممددًّا تحت قماش أبيض، ويحيط به عشرات الأشخاص؟ منهم من لم يرَ جدّي منذ عهود، ومنهم من لم يهتمّ به أبدًا ويدّعي الآن أنّه يبكي، كيف تبكي على شخص لم تهتم به عندما كان حيًّا؟ أمّا الآن، فهو لا يحتاجك ولا يحتاج دموعك، هذا ما يزيدك خنقة وحسرة، أن ترى مثل هذه الفئة حولك، يجلسون ويضحكون كأنّه لا يوجد عزاء، الكلّ منشغل بالقهوة والشّاي والمسمن والحلويات، والجميع ينتظر مائدة العشاء، بربّكم كيف لا تتعّظون والموت أمامكم؟ أنا لا أطلب البكاء والنّحيب، لأنّي أعلم أنّه ليس قريبكم، لكن يكفي أن تصمتوا وتتعّظوا، يكفي أن تغادروا وتتركوا أهل البيت في شأنهم، لكن هيهات، فلا أحد يفهم معنى الوداع إلّا من جرّب سماع كلمة **"عظم الله أجرك"**.

اللّهم ارحم فقيدي واعفُ عنه وأكرم نزله ووسّع مدخله.

غادر جدّي وأخذ جزءًا من روحي معه، لا أعلم لماذا يغادر الطّيّبون أوّلاً، هل الله أحبهم أكثر منّا لذا أخذهم؟ أم أنّهم اكتفوا من هذه الدّنيا وطمعوا في الآخرة؟ رحمك الله يا جدّي، ورحم أجدادكم.

أقول إنّ الألم سينقص، لكنّه لن يُنسى، بل ستندم كما ندمت أنا، ندمت لأنّي جلست مع جدّي في يوم وفاته أقلّ ممّا أتمنّى اليوم، وخاصّة أنّ الموت لا يُعلم ولن يُعلن، فاغتنموا أكبر وقت مع أحبابكم وأعزائكم، لأنّه ربّما لن يكون هناك غدًا.

صديقي:

في صغرنا لطالما تعلّمنا معنى كلمة صديق، وفاء وحبّ وإخلاص، تعلّمنا أنّ الصّديق وقت الضّيق وتعلّمنا أنّه لا مصالح بين الأصدقاء رغم هذا كبرنا وتغيّرت تلك المفاهيم لتصبح مجرّد معاريف سطحيّة لم تستطع أن تشمل مشاعرنا الباطنيّة.

خذلنا من أصدقاء وعشنا خيانات وتوسّطت بيننا المصالح، لم يعد الصّديق يأبى بصديقه وإن سألك كيف حالك فبمجرّد فضول لا غيره وأصبح السّرّ لا يكتم وغابت النّيّة الصّادقة.

لكلّ فعل ردّة فعل، هكذا تعلّمنا في الفيزياء يا صديقي، هكذا علاقتنا إن كانت جيّدة فاعرف أنّ فعلي يساوي ردّة فعلك لكنّه لم يكن ذلك، كانت معاملتي لك أحسن من معاملتك لي، كنت مجرّد شخص أنانيّ محبّ لذاته غيري أنا في كلّ مشكلة كنت حاضرا أمامك أسمعك مرارا وتكرارا مركّزا ومحلّلا لكلّ كلمة تقولها ليس لأنّي أحبّ التّفاصيل المملّة والكلام الزّائد ولكن لأنّي صديقك

عكسك أنت عند كلّ مشكلة تقع لي أجد نفسي أشكو لك، لكن هل تعلم ماذا أعرف؟ أعلم أنّك لم تستمع إلى أصغر كلمة قلتها لك منهيا كلامي دائما بشدّة وستزول، علمت حينها أنّك لم تكن تهتم لحالي وإنّما الفضول كان يقتلك كلّ مرّة حتّى إذا عرفت مشكلة أصرفت عقلك عنّي كلّيّا.

كنت مجرّد رقم بالنّسبة لك، تتذكّرني وقت فراغك ويوم فقرك، أمّا يوم غناك أنت تذهب إلى شخص آخر، أنا لا أحاسب أحدا لكن لا تدّعي بأنّك لم تفعل شيء وأنّك شخص طيّب، يكفي أن تأتي إليّ بوجهك الحقيقيّ وهنا أكتفي لأنّني لا أحمل عادة النّساء ولكن أردت تكريمك في كتابي.

هرمونات:

هناك حربٌ بداخلي بدأها قلبي، ولم أعرف إن كان سينهيها عقلي، ما أعنيه لنفسي، وما أريده لنفسي، وهل أنا راضٍ عن نفسي؟ خيبات تتلوها خيبات، وأحلام تتبعها أحلام أصغر منها، الغد يأتي أصعب من اليوم، واليوم أكثر إحباطًا من الأمس، أفراح تتلوها صدمات تُنسيك يوماً أنّك ضحكت وفرحت، فما الغرض إذن من فرحة تصطحبها مصيبة وصديق اليوم يمسي عدوًّا غدًا، أو أذلّ من عدوّ في يوم مضى؟ العجز والفقر يُذلّاني بغير حقّ، ولكنّني لست مجبرًا على ذلك، فأنا وحدي سبب فيما أتى، لا أعرف للظّروف معنى، ولكنّني أكتفي بالنّحيب كلّ عشية وغدٍ، أنا مهمل أو متصنّع، سأسمّي نفسي ما شئت، رجوت قلمي وأوراقي أن تعبّر عن حالي، ربّما أجد بين سطوري قليلاً من العزاء، وددت أن أفهم نفسي وأحارب فتات أفكاري، وأقلب السّلب إيجابًا، وأتطلّع إلى غد مشرق لتنتهي قطرات المطر، فإنّي لا أملك لنوافذي زجاجًا، فأسمع لحن المطر الهاطل، ولست بغنى أحدهم

كي أستمتع برياح الخريف، فو الله باب منزلي ما هو بموصد، ولا أنتظر شمس الصّيف القادم فما لي بقدرة على حرّه، وما والله ما عندي مكيّف يبرد جسمي الهزيل.

اجتاحتني المشاعر مرّة أخرى، وعمّت الأفكار مرتطمة بجدار عقلي، أحاول الخروج من جسدي العفن برائحة العرق، لا ألوم جسدي لأنّه يقوم بعمليّة فيزيولوجيّة، ولكن ألوم فقري لأنّي لا أستطيع جلب مكيّف هواء، ولا ألعن حظّي لأنّه لو كنت بجانب زوجتي الآن، لزاد الأمر سوءًا، خصوصًا أنّ نساءنا يحظين بعلاقة جميلة مع السّمنة.

ما أدركته اليوم أنّني لم أستطع النّوم بسبب هذه الهرمونات الّتي تريد أن تتجسّد على أرض الواقع إمّا بقبلة أو حضن وسط أجواء حميمة تحت جناح الحبّ، ذلك لأنّنا دائماً نعبّر عن نزواتنا بالحبّ، ونبرّر شهواتنا الحيوانيّة بأنّ الهرمونات سيطرت علينا، تلك الّتي تدفع الشّاب أن يخرج في ظلّ الشّمس الحارقة بحثاً عن الحبّ الجنسيّ، أو الّتي تدفع به أن يتوسّل لفتاة في عرمة اللّيل كي ترسل له تسجيلاً صوتيًّا أو صورة بوضعيّات إيحائيّة (إيحائيّة وليست إباحيّة) لعلّه يرضي هرموناته، والّتي ستزول عندما ينام، ولكن المشكلة عندما يستيقظ ويتذكّر ما كتبه لتلك الّتي

كان يدعوها بالأخت أو الصّديقة، فسيتلاشى كبرياؤه آنيّاً، وإن كانت هناك صداقة بين فتاة وشاب، وإذا تذكرت أنّك أو أنّك تعيش علاقة صداقة بها أو به، فاعلم أنّها مصطنعة لأنّ أحدكما يخفي مشاعره، أو لعلّ الهرمونات متشابهة لديكم، لا، لا أقصد أنّ أحدكما شاذ، أنا فقط أبثّ قلت سابقاً درجة حرارة قلبت موازين عقلي.

في رأيك، هل يمتلك الإنسان جانبًا حيوانيًّا؟ نعم؟ لا؟ تحطيم الأماكن العامّة، العنف في الملاعب، الاغتصاب والاعتداء؟ لا، هي مجرّد تنفيس عن غضب وإخراج الطّاقة السّلبيّة، حسنًا، سأجاريك، ماذا تسمّي إذن تلك الأفكار الجنسيّة المتجسّدة بصفة شاذّة أمام مرأى المجتمع، والّتي أصبحنا نراها بصورة متكرّرة؟ ماذا عن الغابات الّتي زاحم فيها الإنسان الحيوان وأصبحت وكراً للرّذيلة؟ فكيف لا تغضب وتحترق تلك الشّجيرات؟ وماذا عن شواطئ البحر الّتي دنّسوها بأفعالهم ونجسوا مياه البحر فيها؟ فكيف لا تقلّ الثّروة السّمكية في يومنا وربّما أنّنا محظوظون لأنّها لم تنقطع بعد؟

أظنّ أنّ الإنسان أصبح يحبّ جانبه الحيوانيّ أكثر فأكثر، بل تغلّب عليه وابتكر نموذجًا أكثر تجرّدًا، لأنّ الإنسان لا يحبّ

القيود ولا امتثال للجانب المتّزن، يريد أن يدفع بكلّ أفكاره إلى العراء غير مبالٍ بالنّتيجة، فقط كلّ ما يهمّه هو إفراغ نزواته وإشباع شهواته متحجّجاً بهرموناته وذلك لتفادي مأموريّة ضميره ومحكمة عقله، فإلى متى سيظلّ الإنسان مجرّد نشوة حيوانيّة؟

إلى هنا انتهى تفكيري في هذه المسألة الّتي طرحها عقلي في هذه اللّيلة الهادئة، هنا عرفت أنّ عقلي هو الّذي لا يريدني أن أنام وليست الهرمونات، يا عزيزي القارئ، فنحن مختلفون.

ليلة باردة:

دخلت إلى غرفة المحاكمة وجلست على الكرسيّ المعتاد، قرّرت في هذه اللّيلة أن أكون القاضي على حياتي، وأن أقرّر إن كنت سأُنهيها اليوم، لا أنكر أنّني تخاذلت، أخطأت، وندمت على أمور، سواء فعلتها عمداً أو لا، لأنّ ذلك لا يغيّر الحقيقة الصّارخة؛ أنّي في انحدار نحو الهاوية، نعم، سأكشف كلّ ما هو أسود في حياتي، حتّى أنت ستكون القاضي عليّ، وستقرّر إن كنت سأعيش هذه اللّيلة أم سأحكم على نفسي بالإعدام.

سأبدأ بذلك الشّاب الّذي تكلّمت عنه في غيابه، هل سيسامحني؟ وتلك الفتاة الّتي تجرّدت تمامًا في خيالي، هل ستغفر لي؟ وتلك السّيّدة الّتي طلبت منّي صدقة، لكنّي رفضت لأنّي أردت أن أشتري لنفسي بعض المشروبات في المقهى، كيف ستراني بعد علمها بذلك؟ ولا أنسى ذلك العجوز بجانب منزلي، الّذي لم أحبّه يومًا رغم ابتسامته لي كلّ يوم، هل سيبتسم لي مجدّدًا إن علم أنّي

أبغضه بلا سبب؟ مهلاً، تذكّرت كم مرّة اتّهمت أشخاصًا في حياتي بأنّهم سبب كلّ ما يحدث لي، فقط لأُرضي ضميري؟ أظنّ أنّ الشّيطان قد تجسّد داخلي وأصبح يسري في دمي.

كلّنا نحمل شيطانًا داخلنا، ولسنا دائمًا نلوم الآخرين بالسّوء، ربّما نحن من جرحهم مرّة أو مرّتين دون أن ندرك، هل فكّرت في الشّخص الّذي تركك يومًا؟ هل قلت لنفسك أنّك قد تكون على خطأ؟ هل حاولت فهم لماذا تركك؟ لا، لأنّنا دائمًا نميل إلى إلقاء اللّوم على الآخرين، نحكم عليهم وننتقدهم، لماذا لا تنتقد نفسك؟ أنت تخاف من تدمير الصّورة الجميلة الّتي صنعها لك النّاس، بل تواصل عرضها على نفسك كلّ يوم، ولكن في الزّاوية الضّيّقة من عقلك، تتجمّع كلّ المساوئ والعاهات الّتي تمتلكها، متردّدة في الخروج لتواجهك.

كم من شخص يسعى لتقييم نفسه من خلال الآخرين؟ وكم من شخص يشعر بالنّقص عندما يقابل شخصًا أفضل منه؟ هل يتعلّم من ذلك الشّخص ويبني نفسه من جديد؟ لا وألف لا، بل تراه يستهزئ به ليعمى بصيرته، ويشعر بالرّضا أنّه متساوٍ معه، لكنّه لا يشعر بالرّضا الكامل، فيبدأ بجمع النّاس حوله، وينتقد ذلك الشخص علنًا، ويكشف عيوبه، حتّى يحصل على تأييد الجميع،

وهنا يشعر بالرّضا الكامل لأنّ الجميع قد حكم على ذلك الشّخص بأنّه فاشل، ربّما فقط لأنّه رثّ الملابس أو لا يزال يدرس في الجامعة، ناسين كلامه الحسن أو مستواه الثّقافيّ أو جمال قيمه، الجميع يحمل شيطانًا داخله.

أعود إلى نفسي، فقد كنت يومًا جزءًا من تلك المجموعة، كنت شخصًا دون مستوى، لأنّ من يجاور الفاشلين سيصبح حتماً فاشلًا، لكنّني قرّرت فجأة أن أبني عالمي داخل منزلي، وبالتّحديد داخل غرفتي، هنا انتفضت ونثرت الغبار عن أفكاري، لكن لم أُشفَ بعد، كلّما تقدّمت بخطوة، عدت إلى الصّفر بسبب كلمة قلتها أو فعل سيّء ارتكبته في حقّ أحدهم، والأسوأ من ذلك أنّني لا أغضب من معاتبتهم لي أو من ردّات الفعل الّتي يظهرونها تجاه تصرّفاتي، بل أغضب من نفسي، لأنّني أنا من دفعهم لفعل ذلك، فلماذا كان عليّ فعل ذلك من البداية؟ أليس لدي عقل؟ ألا أستطيع التّفكير قبل أن أفعل؟

هذه اللّيلة كنت بين سعادتين: الأولى كانت طريقها صعبًا مليئًا بالحقد واللّؤم والرّذيلة، أمّا الثّانية فكان طريقها سهلاً ومغريًا للأنفس، لذلك فكّرت في الانتحار، المسدّس موضوع أمامي يترجّاني أن أستخدمه، فهو صُنع لذلك، ولكن يا عزيزي القارئ،

أنت أغفلت شيئًا، أم أنّك تحب الدّراما؟ أغفلت حقيقة أنّنا في الجزائر، وسعر المسدّس أغلى من حياتي، الحقيقة الثّانية أنّني فقير، فكيف لي أن أشتري مسدّسًا؟ أنا لست دوستويفسكي الّذي قرّر إنهاء حياته بمسدّس، بل اخترت أن أموت بحقنة هواء، هي حقنة وريديّة عاديّة، بدل أن يكون بداخلها دواء سائل، يتمّ سحبها إلى نهايتها فيدخل الهواء، ثمّ يتمّ غرسها في وريد المريض فيحقن، وحين يدخل الهواء إلى القلب، يتوقّف عن العمل فيموت الإنسان، لذلك كنت أنظر إليها كسعادة متعاطٍ ينظر إلى مخدّراته، ولكن هل أنا مستعدّ لذلك؟ لا أعلم، بل أعلم أنّ مجرّد التّفكير في استخدامها سيولد غريزة البقاء، لأنّنا نحبّ الحياة مهما بلغ الأسى، مهما عانينا ومهما كرهنا النّاس والمجتمع، فنحن لا نريد مغادرتهم، لأنّهم أصبحوا جزءًا منّا، ففي لحظة محاولة الانتحار، كنت أعلم أنّي سأشتاق إلى ذلك الّذي كان يزعجني في حيّي، سأشتاق إلى جارنا الذي كان يرمي أوساخ بيته أمام بيتنا. سأشتاق إلى ملابسي الوحيدة التي كنت أشاطرها مع أخي، وإلى مشاجراتي القليلة في حياتي، كنت أعلم أنّي سأشتاق للجميع، رغم كرهي لهم، لم أعد أفهم حينها ما هي العلاقات وما هي المشاعر، الجميع أصبحوا ملائكة، والأرض أصبحت جنّة، حتّى الشّيطان بداخلي أصبح يحبّني لأنّه يعلم أنه لن يبقى له أحد يوسوس له،

حتّى أعضائي أظهرت خوفها من مغادرة هذه الحياة، خاصّة لأنّها ستذهب إلى جهنّم.

هنا تبدّدت أفكاري وأعدت حقنة الحياة كما أسميتها، لأنّني صرت أعرف ما لم أكن أعرفه تلك اللّيلة، وقرّرت الانتظار بدل الفرار، أنا لم أُشفَ، لازلت مكتئبًا، لكنّني لازلت معك يا عزيزي القارئ.

لذلك سألتك: هل كنت تحبّ أن أنتحر؟ أم أنّك أصبحت جزءًا منّي؟ نعم، جزءًا منّي، لأنّي أكتب لك بيدٍ كانت تحمل الحقنة قبل دقائق، وهنا ربّما تعلّمت معي طريقة انتحار بسيطة وغير مكلّفة.

أنا في غبطة الآن، ماذا يمكن لربّي أن يفعل في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل والنّوم قد حُرمت منه؟ العزلة أصعب ممّا توقّعت، رغم أنّها استبدت بفؤادي وأصبحت غريمتي، أنا أحبّ عالمي لأنّني فيه أكون حرًّا، تتحرّر فيه أفكاري وأحقّق أحلامي، أستطيع أن أكون مع دوستويفسكي في غرفته، أو مع بوكوفسكي وهو يتناول زجاجة خمرة، أو ربّما أكون مع مونيكا بيلوتشي في أحد مقاهي إيطاليا، أستطيع أن أجيب عن كامل أسئلة النّاس، وأن أُقيم حوارات لا متناهية في مجالات عدة دون عناء. حتى تتبدد

تلك الأحلام عندما أعود إلى الواقع المرير، حيث أنا نكرة، جزء متجزّئ من هذا العالم لا يعرفه أحد، وإن عرفه أحدهم نفر منه، لأنّه بالكاد لا يعرف كيف يتواصل مع هذا الشّخص الكئيب الّذي بالكاد لا يستطيع معرفة نفسه المتجادلة مع أفكاره.

لم أعد أعرف ماذا يكملني، وماذا يلهمني، لم أعرف يومًا التّشبّع الحسّي والفكري، أنا الآن جائع، ليس بالتّعبير الكلّي، وإنّما الجزئيّ، أنا جائع داخليًّا، أريد أن أشبع مشاعري وأفكاري، ربّما أريد الحديث مع أحدهم، أو الرّقص مع إحداهنّ، ربّما فقط تبادل النّظرات مع حيوان أليف يكفي لي، المهمّ أن أتجرّد من عزلتي الآن، وأن أخرج من قوقعتي، تبّا، كم أريد وأرغب في أن أرتشف كوبًا من القهوة مع نادلة ما، نعم، نادلة، لأنّها حتما لن تعطيني من وقتها سوى دقيقة، وتلك الدّقيقة كافية لإرجاعي إلى ما كنت عليه، لأنّي أعلم أنّني سرعان ما سأشتاق إلى وحدتي بعدها.

التّضارب الدّاخلي في الأفكار وانفصام مشاعري وتذبذبها من سعادة إلى حزن، إلى وحدة، إلى كره، وحتّى إلى عنف، جعلني أخوض في غمرات جبّ الوحدة، وهل من منقذ لي؟

حتماً، حقيقة الإنسان مبهمة، كيف يمكن له أن يتغيّر من ليلة إلى صباح، ومن فصل إلى فصل؟ ما هي العوامل الّتي تؤثّر عليه؟ وما مدى تأثير الاهتمام في نفسه المستبدّة؟

الاهتمام هو أداة ضروريّة يحتاجها الإنسان مهما كانت عقليته، كلّ إنسان لديه ذلك الطّفل الدّاخلي الّذي يحتاج إلى الرّعاية ويميل إلى التّدلّل والعناق والأحضان وحتّى القبلات، لكن المشكلة تكمن في اللّحظة غير المناسبة الّتي يقرّر فيها ذلك الطّفل الظّهور.

كيف له أن يقرّر دون أدنى فكرة أن يظهر هذه اللّيلة وهو يعرف أنّني وحيد ومتشرّد داخل غرفتي؟ كيف يمكنني أن أدلّل نفسي وأن أكفي احتياجاتي؟ هل هو يمزح؟ إنّه منّي، فهو حتماً يعرفني، فلماذا إذن يقرّر معاقبتي بشيء لا أستطيع ترويضه؟ نحن نتحدّث عن مشاعر هنا، كيف لي بذلك؟ ربّما وسادة أو وسادتان تكفيانه، أو أن أتحدّث مع جدران غرفتي الّتي تسألني عن حالي، فهل يرضيه هذا أم ماذا إن قلت لك أن تجرّب احتساء

القهوة وأنت تنظر إلى صورة ريهانا الموضوعة أمامي، وتشعر كأنّها أمامك؟ ربّما يسدّ هذا جوعك يا طفلي.

لم أعد أعرف إن كنت قد أصبحت مجنونًا أم أنّ العدميّة المفرطة قد نالت منّي، لكن ما أعلمه هو أنّني سأعود إلى طبيعتي غدًا وأنّ هذا الطّفل سيعود خائبًا أو جائعًا، المهمّ أنّه سيعود داخلي ويُقيّد من جديد حتّى يأتي أوانه مرّة أخرى.

وهنا أتركك يا عزيزي القارئ، ويا ليتك كنت معي هذه اللّيلة، لعلّك أغلقت مسارات وحدتي.

ما بين العفوية والتّصنّع:

يرى خبراء النّفس أنّ للتّصنّع أسبابًا نفسيّة عدّة، فقد يكون المتصنّع لديه حساسيّة كبيرة بالتّعامل مع الآخرين، ممّا يدفعه إلى التّعامل معهم بشخصيّة مصطنعة ومزيّفة، يحاول فيها أن يبدو شخصًا مهمًّا ذا قيمة، وقد يكون شخصًا يشعر بالنّقص إزّاء نفسه وسلوكيّاته الطّبيعيّة ويظنّها مدعاة للسّخريّة من الآخرين، ممّا يجعله يهرب من شخصيّته الّتي تمنحه قدرًا أقلّ من الاهتمام، ليصطنع نوعًا وشكلًا آخر من الطّبائع السّلوكيّة للتّعايش والاندماج بشكل أفضل حسب اعتقاده، وقد يصطنع شخصيات لأغراض معيّنة، مثل أن يبدو مغفّلًا وبليدًا ليبعد نظر الآخرين عنه، أو قد يبدو جذّابًا ليحظى بإعجابهم وتقديرهم، وقد يتصنّع لأسباب مرضيّة نفسيّة مرتبطة بخلل عقليّ أو نتيجة لإصابة عقليّة، وفي كلا الحالتين يكون هؤلاء الأشخاص معروفين لدى خبراء علم النّفس بتصنيع حوارات

ونسج قصص خياليّة لجذب الانتباه فقط، ولقد أسهمت وسائل التّواصل الاجتماعيّ بشكل كبير في بروز نماذج تدّعي المثاليّة عبرها، وهم في الأصل يفتقدون للمنطق.

أعود إلى نفسي؛ كيف للإنسان أن يتّخذ نموذجًا مغايرًا لطبيعته فقط لكي يكسب نظرة راقية من طرف مجتمعه أو فقط لكي ينتمي إلى مستويات غير ثابتة؟ لقد أصبحنا نرى من يغيّر طريقة مشيته وأكله ومن بلغ به الأمر إلى تغيير شكله ليصبح شخصًا يعيش الرّفاهية والشّهرة الّتي يحلم بها الآخرون، متناسين انعكاس شخصيّة ذلك الشّخص الّذي لا تظهره شاشات التّلفاز، والّذي ربّما غطّت عنه جرائد الصّحافة.

لا أعلم هل هو نقص في الثّقة، أم محاولة يائسة، أم تغيّر جذري في أسلوب حياته؟ ومعظم التّصنّع يتمثّل في الفتيات، حيث أصبحنا لا نفرّق بينهنّ لا في الشّكليات ولا التّصرفات، لأنّهن تخرّجن من مدرسة واحدة؛ مدرسة التّواصل الاجتماعي، تحت التّبعيّة الخاصّة لمن يسمّون صنّاع المحتوى، أو يقتبسن النّصائح من مجموعات على فيسبوك، لم

أعد أرى اختلافًا، ولم أعد أرى الجمال الحقيقيّ في كلّ منطقة؛ أصبح الجمال واحدًا عندما تتعامل الفتيات مع الماكياج، فتظهر كلّ منهنّ بنفس القالب من شعر منسدل وجينز ضيّق ووجه مزيّن بماكياج مختلف يطغى عليه لمسات سحريّة وفاتنة، ترى فتاة بيضاء تصبح سمراء بوضع ماكياج البرونزاج، وأخرى سمراء تصبح بيضاء، وتعدّدت الوصفات والهدف واحد.

أمّا من ناحية الأسلوب الفكريّ، فمعظمهنّ لا يحظين بتلك اللّمسة المميّزة الّتي تميّزهن عن باقي الفتيات بسبب النّصائح الّتي يتبادلنها، متحجّجات بأنّ كبرياء الفتاة أسمى من أن تتخلّى عنه، يرون في كلّ تصرّف يتلقّينه من الطّرف الآخر إسقاطًا لكبريائهنّ أو انحطاطًا لمقامهنّ، ولا ننسى الأفلام والمسلسلات الّتي رفعت من سقف آمالهن وأحلامهن، فحوّلت الفتاة إلى بطلة، وجعلت الشّاب يظنّ أنّه البطل الّذي يستحقّ أن يعيش كما يعيش أبطال الرّوايات، ممّا رفع تقييم الجمال في نظرهم وقيم الحياة الرّفيعة، وجعل كلّ منهما يعيش في عالم الأحلام ناسين الواقع ومستوياته.

ليس هناك أجمل ولا أرقّ ولا أفضل من البساطة في كلّ شيء؛ في الحديث والسّلوك وأسلوب الحياة، وليس هناك أبشع من الزّيف والتّقليد السّمج، والتّظاهر والتّصنّع، إذا كنت أستثقل البقاء مع الثّقلاء لدقائق، فإنّني أستثقل البقاء مع المتصنّعين والمتصنعات لثوان، المتصنّعون والمتصنعات الّذين يحشرون كلمات إنجليزيّة أو فرنسيّة غير ضروريّة في الحديث، ويتحوّلون دون أن يشعروا إلى غراب يقلّد مشية الحمامة؛ فلا هو أجاد مشيتها ولا قدر على العودة إلى مشيته الحقيقيّة.

أصبحنا نرى كلّ شخص مثل الآخر، رغم أنّ الله خلقنا مختلفين، أصبحنا مقيّدين بالعادات والتّقاليد الّتي خلقت لهدم شخصيّة الإنسان، فالجميع يتحدّث عن المثالية ويبحث عنها، وأصبح الكلّ ينتقد ويستهزئ بالآخرين واصفًا إيّاهم بالتّخلّف، ربّما لمجرّد أنّهم سألوا عن ثمن الطّعام قبل أن يطلبوه، أو أنّهم لم يتركوا رشفة شراب في كأسهم أو لقمتين في صحنهم، لأنّ هذا يُعتبر "رقيّاً" و"تطوّرًا"، أمّا إن تكلّمت مع شخص ما، فتأكّد أنّ كلّ ما يقوله منافي لحقيقته، إن سألته ماذا أكل

فسيقول البيتزا بدلًا من الفاصوليا، رغم أنّ كلاهما طعام، حتّى إن سألته عن أحلامه ستجده يأخذها من شخصيات قرأ عنها، أمّا الفتيات فبلغن من التّصنّع المقام الأوّل، فتراها تشمئزّ من نوع من المأكولات أمام النّاس، بينما هي محرومة منه في بيتها، تراها تتمشّى كأنّها مبرمجة بطريقة دالّة تآلفيّة مع اهتزازات سطحيّة لإثارة بعض الشّباب، وسرعان ما تدخل بيتها فتتغيّر مشيتها تدريجيًّا وتعود إلى مسارها الحقيقيّ، تراهنّ يتكلمن بكلام مسطّر لا يجب الخروج عنه، لأنّ ذلك يشكل خطرًا عليها، ولا تستطيع إبداء كلّ آرائها، في نظرهنّ الحديث عن الخطوات الرّئيسة لإيقاع الشّباب في مصيدتهنّ هو موضوعهنّ الأساسيّ والمتجلّي دائمًا في جلساتهنّ، كم أشتاق لسماع إحداهنّ تتحدّث عن كاتب ما، أو مباراة شيّقة، أو رسّام ماهر، ولا ننسى أغاني الرّاي الّتي تعتبر منهجًا لسلوكهنّ؛ فتراهنّ يسمعن أغنية تدّعي أنّها عاشت قصّتها ويضعنها على الستوري الخاصّ بهنّ، معيدات إيّاها العشرات من المرّات، وهذا أسلوب آخر يدعى بالـ "شّرة".

ذكرت لي إحدى السّيدات وهي تضحك بحرارة أنّها ذهبت ذات مرّة لزيارة مريضة من معارفها وصحبت معها أختها الّتي تصغرها بعدّة أعوام، كانت الأخت على قدر كبير من الجمال، لكنّ جمالها كان يختفي بمجرّد أن تبدأ بالحديث مع الغرباء، تمطّ الحروف وتمضغها وتضحك بطريقة غريبة وتتأوّه بين كلمة وأخرى وهي تظنّ أنّها تثير الانتباه وتحوز الإعجاب بتصنّعها اللّافت، أوقفها شرطي مرور ونبّهها إلى أنّها تقف في مكان محظور، فما كان من الأخت إلّا أن فتحت نافذتها وبدأت تجادل الشّرطي بدلع وبعبارات ممطوطة وغير مفهومة، هنا اعتذر الشّرطي وقال للسّيّدة وهو يتحاشى النّظر لأختها: "آسف، لم أكن أعلم أن معك أحدًا من ذوي الاحتياجات الخاصّة".

وفي العصر الّذي عاش فيه الكاتب الفرنسيّ السّاخر موليير، برزت ظاهرة الحذلقة والتّصنّع والمبالغة في الحديث والضّحك بين النّساء في الطّبقات الثّريّة الأرستقراطيّة، وبدأت تنتقل إلى النّساء في الطّبقات الأقل مكانة أو ثراء، ممّا دفع الفنّان للتّصدّي لهذه الظّاهرة وكتابة مسرحيّة تسخر منهنّ، أطلق عليها "المتحذلقات"، تجرّأ النّاس على الضّحك من المتصنّعات جهارًا بعد أن كانوا يضحكون منهنّ خفية، بدلاً من العودة إلى طبيعتهنّ

وترك الافتعال في الكلام والسّلوك والملابس، استخدمن نفوذهن لمحاربته، صدر قرار بمنع عرض المسرحيّة الّتي تدور أحداثها حول فتاتين تجمع بينهما صلة القرابة والتّفاهة في نفس الوقت، تقول إحداهما لخادمتها يومًا: "أين مستشار الجمال؟"، فتحتار الخادمة وتتساءل عمّا تقصد، فتردّ المتصنّعة بغضب: "مستشار الجمال يا جاهلة.. هي المرآة!"، وتتصاعد الأحداث عندما يتقدّم للزّواج منهما شابان متعلّمان وعلى قدر كبير من الذّكاء والجاه والاستقامة، ويتمّ رفضهما دون تردّد، لأنّهما تقدّما بطلب الزّواج مباشرة ودون تمهيد، وكان من المفروض أن يبدآ بالغزل والوعود، أو كما قالت إحداهن: "كيف نوافق على هذين الرّجلين اللّذين تقدّما لنا بهذه الطّريقة الفجة؟ أين الخطابات الغراميّة والقصائد والزّهور والعطور الّتي تسبق هذه الخطوات؟"، ويردّ الأب باستنكار: "هل كنتما تفضّلان أن يتمّ استغلالكما باسم الحبّ والغرام وأن تصبحا عشيقتين لهما؟ ألم يكن أدعى لكرامتكما وكرامتي أن يبدآ بعرض صريح للارتباط بدلًا من اللّفّ والدّوران؟"، لكن الفتاتين ترفضان هذا المنطق وتتمسّكان برأيهما القاصر، فيفكر الشّابان في تلقينهما درسًا، فيرسلان خادمين يعملان لديهما للتّعرّف عليهما بعد أن يتنكّرا في هيئة شابّين من الطّبقة الرّاقية وتنطلي الخدعة على الفتاتين وتقعان في مصيدة

حبّ زائف مثلهما تمامًا وتكتشفان بعد فوات الأوان أنّهما فرّطتا في الأصل ولم تجنيا سوى القشور وخيبة الأمل.

فما الّذي يمكن أن يحدث لو كنّا جميعًا عفويّين؟ هل سنموت؟ ماذا لو تحدّثت بطريقتك وأكلت بطريقتك، وتحدّثت عن آرائك الخاصّة وفعلت أشيائك لأجلك أنت فقط، وليس لإعجاب النّاس أو لإظهار أنّك المنشود؟ ماذا لو حرصنا على أن نكون نحن باختلافاتنا، مساوئنا، ومحاسننا، بكلامنا الخاصّ وجمالنا الخاصّ، لكنّنا لا نستطيع لأنّ المجتمع حكم علينا منذ اللّحظة الأولى وأصبحنا عبيدًا للعادات والتّقاليد ووسائل التّواصل الاجتماعي؟ لا تستطيع لأنّك قرّرت أن تكون جزءًا من هذه الطّفرة، وتمّ تلقيحك ضدّ العفويّة، أنت الآن نموذج، ولكن لا تعتبر نفسك مثاليًّا لمجرّد أنّك تحفظ بعض الأغاني ولديك تسريحة مثل راموس، أو أنّك ترتدين على طريقة إحدى روّاد الإنستغرام الّذين يحتالون عليك مستغلّين تصنّعك.

الذّكريات:

لقد شاهدت مؤخّرًا فيلم Notebooks، وهو فيلم يتحدّث عن رجل مصاب بمرض فقدان الذّاكرة القصير وكيف أثّر ذلك على حياته وعلاقاته مع النّاس، قرّر هذا الرّجل أن يغادر بيته الّذي يعيش فيه مع ابنته ليذهب إلى مكان نشأته، سعيًا ميؤوسًا منه لعلّه يسترجع ذكرياته، أصبح يدوّن كلّ ما يتذكّره في دفاتر ملاحظات، ولفت انتباهي أنّه بدأ يذهب إلى الأماكن الّتي يعرفها ويحاول استرجاع ذكرياته، كان كلّما يتذكّر لحظة أو دقيقة، كانت كافية لأن تغمره بالسّعادة وكأنّه كان ينتشي، نعم، مجرّد ذكرى واحدة مع صديق أو أخيه كانت تقلّب مزاجه يومًا بعد يوم، وأصبح هذا الشّخص أكثر سعادة وسلامًا، هل تعرفون لماذا؟ لأنّه أصبح عقله يسترجع الذّكريات السّعيدة فقط، ناسيًا تلك السّيّئة منها، أصبح مصنعًا للذّكريات الّتي تنتج هرمونات السّعادة.

من ناحية أخرى، كانت هناك امرأة اسمها باربا في فندق بجانب المستشفى، كانت تخبره أنّها تزور ابنتها في قسم الطّوارئ، ولكن ابنتها كانت قد ماتت مسبقًا في ذلك المستشفى، لكن ذكرياتها بقيت عالقة في ماضيها، وهذا كان لعلاج حزنها، عقلها عبث بتلك الذّكريات ليجنب حصول أيّ تغيير لتلك المرأة، فأوقف الزّمن بها وكأنّه لا يزال يعطيها أملًا أنّ ابنتها لا تزال على قيد الحياة.

الذّكريات هي هويّة كلّ شخص، والّتي تحدّد نمطًا معيّنًا له، هل جرّبت أن تختلي بنفسك وتسترجع ذكريات طفولتك ومراهقتك وعائلتك وأصدقائك في الدّراسة؟ في تلك اللّيلة جرّبت أن أعود بأفكاري إلى ماضيّ وأفتش بين ثنيات ذاكرتي عن سعادة، تأخذني الأحاسيس إلى أحلامي وأرى الدّقائق الّتي مرّت ولا أزال أرى نفس المشاعر تتملّكني، ما بين ذكريات حفرت داخل أعماقنا وصور حفظناها في أعيننا، هناك حنين وشوق وحبّ لم نستطع إخفاءه.

في تلك اللّيلة أتتني الكثير من الذّكريات الّتي فرضت نفسها عليّ، لأنّها تلك هي طريقتها، تختفي دون إذنك وتعود مرّة أخرى دون إذنك، أحيانًا تأتي مكتملة وأحيانًا مشوّهة، تذكّرت اليوم

الأوّل لي في المدرسة، حيث كان الجميع يبكون إلّا أنا، ليس لأنّي كنت قويًّا، وإنّما بسبب تلك اليد الّتي كانت تمسكني، وهي يد أخي الأكبر، والّتي عرفت حينها معنى أن يكون لك سند، عيد الأضحى الّذي بكيت فيه كثيرًا على الخروف الّذي ذبحناه، والآن كبرت ولم أعد أبكي على أيّ خروف، لأنّ البراءة قد اختفت، آه كم تغيّرنا!

تذكّرت حكايات جدّتي تحت ضوء الشّموع، وما أحلى تلك اللّحظات، عيناي ابتلت بالدّموع، ولكن ليس وقتك، الآن لا أرى جدّتي سوى أيّام معدودة في السّنة، لقد ذهب ذلك الصّبي الّذي كان يبكي لمجرّد أنّ جدّته أنهت قصصها وطلبت منه النّوم، آه كم تغيّرنا! ألم أقل إنّه يجب أن نسترجع ذكرياتنا لننتشي بالسّعادة؟ لكن لم أعلم أنّها ستعود على شكل ألم.

تذكّرت أوّل يوم أقود فيه دراجة هوائيّة وكيف سقطت من أوّل مرّة، لقد رميت الدّراجة على الأرض، وإذا بأبي يعيدها إليّ ويعلّمني كيف أقودها، كنت من الّذين يستسلمون منذ الوهلة الأولى، ولكن إن وجدت من يساعدني، أعود أقوى من الأول، الآن كبرنا وأبي هو من ينتظر إسناد ظهره إليّ.

تذكّرت ذلك العصفور الّذي رأيته صدفة في حديقتنا، كان جريحًا وأيّامه معدودة، أخذته وأطعمته، وخفت عليه كأنّه ملكي إلى أن مات بعدها بيوم، دفنته وقرأت عليه الفاتحة، لم أكن أعرف لأنّي كنت صغيرًا، لكن قلبي كان نقيًّا لدرجة أن أبكي وأدفن عصفورًا في تلك اللّحظة من ذلك الزّمن، الآن لم يعد يهزّني موت أحدهم.

تذكّرت مقاعد دراستنا وأتاني الحنين إليها، وقتها كان أكبر همّنا هو حفظ جدول الضّرب، وكنت أحظى بالعشرات من الأصدقاء بين فتى وفتاة، الآن، أنظر إلى نفسي فلا أجد سوى نفسي، أين اختفوا ومتى حصل ذلك؟

تذكّرت يومي الأوّل في الجامعة، توقّفت حينها أمام الجامعة وقلت في نفسي: خمس سنوات سأدرس هنا، إنّها مدّة طويلة، وكلّي آمال وأحلام داخل هذه الجامعة، أمّا الآن سأنهي سنتي الخامسة ولم أفعل شيئًا سوى الانتقال من سنة دراسيّة إلى أخرى، وأنا في انتظار أن أخرج من هذا المكان الملعون، ما بين سنتي الأولى والأخيرة، تغيّرت وضعفت وفقدت ذلك البريق الّذي كان يغلف وجهي.

تذكّرت حبّي الأوّل في المتوسّطة، كان حبًّا نقيًّا، كنت أعد الدّقائق حتّى ألتقي بها، وكانت النّظرات من بعيد كافية لتروي عطشي ورسالة منّي قد كشفت نواياي تجاهها، لم تعرف من مرسلها لأنّني كتبت من مجهول "غارق في حبّك أنا"، أضحك الآن، ضحكة ألم واشتياق، الآن لم أعد أستطيع أن أعبّر عن مشاعري تجاه أيّ أحد، ولم أعد أبصر حتّى في وجه أيّ فتاة، لقد برد القلب الّذي كان ينبض من أجل شخص ما في يوم مضى.

بدأت ذكرياتي تتلاشى وغابت الرّؤى من جديد، كأنّي لم أعد أعرف ماذا عشت، لكن هذه الدّقائق وهذه اللّحظات عرفتني بنفسي كأنّي جلست أمامي ورحت أروي من كلّ زاوية طفولتي ومراهقتي وسعادتي وحزني، آه كم هي جميلة الذّكريات وكم هي مؤلمة تلك الّتي يتمّ صنعها في أماكن أكثر تفضيلًا، حيث كانت العفويّة أكثر جدوى من حياة المخطّط لها.

لا شيء:

ما أبشع أن تكون في منتصف الطّريق، واقفًا تتفرج على نفسك، لا أنت قادر على التّقدّم ولا تستطيع أن تبقى، ما أبغض أن ترى النّاس من حولك قد وصلوا إلى القمّة وتكون مجرّد شاهد لتبارك لهم، ثمّ تعود إلى منتصف الطّريق من جديد، لا حول لك ولا قوّة، لا الوقت يستطيع أن يخرجك من مأزقك، ولا شيء آخر، كان الحياة قد اختارتك من بين هؤلاء لتضاجعك دون مقابل، كم أمقت نفسي، كم أكره نفسي، أنا لا ألوم القدر لأنّي أعرف أنّ الله لا يظلم أحدًا، إنّما المشكلة في نفسي، سئمت من أن أعيش نفس المشكلة بنفس اليوم مع نفس العادات، سئمت لأني لم أجد حلًّا، أو على الأقل نصف حلٍّ أو ربعه، فقط كي أتقدم خطوة أو بضع إنصات، فقط كي لا أعيش نفس الأمس ونفس اليوم ونفس الغد، ومع كلّ هذا، ما يؤرقني هو فكرة أنّه لا أحد يشعر بك، لا أحد يشعر بتضارب أفكارك، ويفتح أخيرًا تلك المتاهة الّتي فرضتها الحياة عليك، ما لي سوى أن أحلم، لا لأغيّر تركيبة الحياة، إنما

كي أرمم ما بداخلي وأصلح أعصابي التي احترقت. أحلم فقط من أجل أن يخمد غضب قلبي ويلين ذلك القلب الّذي أصبح جامدًا ساكنًا، الّذي خلت منه الحياة، أحلم كي أرضي نفسي وأتلذّذ بطعم النّص.

أرى النّجاح وأشمّه، نعم، أشمّه في مخيّلتي، أنا الآن شيء؛ أنا حيوان، أنا إنسان، أنا تلك الدّجاجة الّتي قررت في يوم ما أن تطير وتعيش بين سحابات السّماء، أنا الآن شجرة مغروسة في سماء، جذورها تطاولت حدّ السّماء السّادسة، أنا كلّ شيء؛ كاتب وحكيم، جندي حرب ومكسور حبّ، أنا الآن نشوة جنسيّة في يوم ممطر داخل بيت صغير يتسلّل منه ماء المطر يطرب من يسمعها، أنا الآن لا شيء، انتهى حلمي ولكن أكرمني بدقيقة إضافيّة هذه اللّيلة، أنا أحلم، أنا أحلم.

ما عدت أستطيع إكمال الطّريق، وما عدت أستطيع أن أواكب الآخرين، لم أعد أستطيع أن أذهب إلى المحطّة الأخرى، من قرّر ذلك؟ إنّه ضعفي، إنّه قلّة حيلتي، إنّه قلّة ثقتي، إنّه قلّة ذكائي، أنا نموذج مثاليّ عن الفشل، لا آبه إن قلت ذلك أمامك لأنّه لا يفرق ولا يغيّر شيئًا، حتّى أنت عندما تنتهي ستنساني، بل لا تأبه لي، ومع ذلك أتحدّث معك لأنّه لا حول لي ولا قوّة، امتلأت عيوني

بضباب باريس، وغابت الرّؤية من أمامي كغياب الحبيب، آه، كم كنت فتى حالماً يومها، ولكن لم تجتمع السّاحرات حول مهدي يوم ولدت، لذلك لست محظوظًا، لم أعلم أنّه سيأتي يوم أكون فيه هنا، أكون لا شيء دون لا شيء، لم أعلم أنّ قدراتي ستخونني يومًا، ولم أعلم أنّني سأنتكس دوماً نكسة مهزوم، وفي ظلّ هذا لا أرى أدنى فرصة، لا أرى أيّ أمل، أنا لا شيء.

الموت:

هل ينتابك ذلك الشعّور؟ أيّ شعور؟ الرّغبة في أن لا توجد.

كيف لي أن أشرح لك طوال فصولي أنّي متعب من نفسي من النّاس، من الأحلام، من الحياة، من قلّة صبري، من تردّدي ونوبات غضبي دون أن أشعرك بأنّي أبالغ في ذلك؟ لقد ذقت ذرعًا بالحذر من أن أكون سببًا في حزن أحدهم، من أن لا أتخطّى دائرة الطّيّبين، ومن الاختباء وراء سعادة مزيّفة أُبديها في مواقف معيّنة، من التّعلق بأمل ما أنا مبالِغ فيه، من ادّعاء القوّة وأنا في موطن ضعف، من الكلام الّذي لا نستطيع قوله، من التّعلّق بشخص لا نستطيع التّواجد معه، ومن النّظر من بعيد نحو شيء لا نستطيع امتلاكه.

لقد أصبحت ترهقني الإيجابيّة المفرطة نحو كلّ شيء، لأنّي أجدها نزوة شيطانيّة أقرب إلى خطيئة تفعلها وراء صلاتك، وصرت أميل نحو السّلبيّة المفرطة لأنّي أجدها تُدرِج واقعي وثباتي في حياتي، أنا آسف على جسمي العشرينيّ الّذي أصبح

يعيش روتين السّتّينيّات، آسف على نفسي الّتي أصبحت تصارع الاكتئاب، آسف على قلبي الّذي لم يعد يحبّ، آسف على وجهي الّذي لم يعد يبتسم، آسف على عقلي الّذي لم يتذكّر الأحبّة، آسف على يدي الّتي لم تعد تحنو على شيء.

الكلّ يفكّر في الموت ويحاول تجنّبه قدر المستطاع، ناسين أنّنا جميعًا سنموت، سنموت إمّا على فراشنا، أو داخل حمّامنا، أو في مستشفى ما، أو داخل متجر، سنموت أطفالًا أو كبارًا، متزوّجين أو عزّابًا، الموت سيلحق بنا في أيّ زمن وأيّ مكان، لكن ما لم يفهموه هو أنّ الأمر ليس مبنيًا على الموت، إنّما على الحياة، تلك الهديّة الّتي أُعطينا إيّاها مقابل أن نعرف كيف نعيشها، أن تموت فذلك مقدّر لك، لكن كيف ستكون نهايتك وأنت تتفكّر أنّك لم تعش أبدًا لأنك كنت مهزومًا مذلولًا؟

كيف ستشعر وأنت تعلم أنّه طوال سنين حياتك كنت ما بين عزلتك واكتئابك؟ كيف ستشعر وأنت تعلم أنّك لم تتلذّذ أبدًا بأيّ من مقبّلات الحياة؟ كيف ستشعر وأنت تعلم أنّه لن يبكي عليك أحد ولن يفتقدك أحد؟ كيف ستشعر وأنت تعلم أنّك عشت وحيدًا وسَتذهب إلى قبرك وحيدًا؟

هل ستقول عنّي أنّي أكذب لو قلت أنّك ستشعر بالسّعادة لأنّ روحك تحرّرت أخيرًا؟ لأنّه منذ ولادتك قد ظلّت حبيسة هذه

الحياة وامتزجت بمساوئها وبأحشاء دونيتها، لكنّ الموت قد طهّر روحك، وكلّ من يخشى زوال حياته التي كانت عبارة عن مسرحية زائفة، قد انزل الستار عنها، يدعي أنّ الموت مخيف، ناسيًا أنّك عشت من عذاب في حياتك ما لا يُحسد عليه أمثالنا، الحياة هي قبرنا وموتنا هو حياتنا، نحن نرى في الموت حياة جديدة، فإذا كان الله منحنا الحياة، فهو لا يمكن أن يسلبها بالموت، فلا يمكن أن يكون الموت سلبًا للحياة، إنّما هو انتقال بها إلى حياة أخرى بعد الموت، ثمّ حياة أخرى بعد البعث، ثمّ عروج في السّماوات إلى ما لا نهاية، إلى السّعادة الأبديّة.

اعترافات لك:

في خضمّ الفوضى وضجيج السّيّارات واكتظاظ النّاس، وسط روائح الطّعام المنبعثة من المطاعم ورائحة القهوة العطرة، لمحتك من بعيد، كيف حدث ذلك، لا أعلم، كنت تقتربين رويدًا بخطوات متأنّيّة، نظراتك موجّهة نحو الأسفل كما لو كنت تخشين نظرات الآخرين، كنت ترتدين ملابس بسيطة توحي بحبّك للبساطة وأحمر الشّفاه كان يبرز ليجذب بعض الانتباه، وأنا جالس أتأمّل، أفكّر في هل أتقدّم إليك أم أكتفي بالمراقبة كما اعتدت، لكن، ظللت غارقًا في تأمّلاتي حتّى ركبت سيّارة الأجرة واختفيت عن الأنظار، عذرًا لأنّني تأخّرت، فقد كنت غارقًا في عوالم أفكاري وفلسفاتي وتخيّلاتي.

شعور يكتنف قلبي ليس بالحزن ولا بالفرح ولا بالقلق ولا بالخوف، بل يغلب عليه الاشتياق، ولكن الكلمات تعجز عن التّعبير، والقلب يمتنع عن الاقتراب ليس من الكبرياء، بل لأنّني أترك كلّ شيء للزّمن، أريد أن أقترب، أن أتحدّث، أن أضحك، أن

أتناقش وأتجادل، طبعًا معك أنت، لكن متى؟ سأترك الأمور للوقت، إن لم يتمكّن من ضمّي إليك، فسأكون قد فزت برهاني، وإن لم يحدث ذلك، فسأخسرك لأنّك رهاني، يكفيك أن تخطو خطوة واحدة نحوي لنحقّق هذا الرّهان.

شهدت تلك اللّحظات القاسية الّتي دفعتني إلى إنكار ما أنا عليه وما تمثّلين بالنّسبة لي، لا أنكر أنّي أخاف، فقد عاش قلبي في كنف الخوف منذ الوعي بكلمة "خوف" قبل أن يختبر معنى الحبّ، أصبح الخوف من المجهول جزءًا منّي، وكلّما زاد هذا الخوف، كلّما زاد شعوري بالخوف الحقيقيّ وهو فقدانك، هل صرت ضعيفًا؟ لن أجيب، هل أنا جبان؟ ربّما، لأنّ حبّك قد نثر أوراقي وأبطأ وتيرتي وخلط مشاعري، وجعلني أنحدر ببطء كما لو أنّ جسدي ليس بجسدي، وكأنّ عقلي يتحمّل عبء جسدي ومشاعري ونوبات غضبي وتقلّبات مزاجي، كرهي وحبّي لك، غضبي منك واشتياقي إليك، ليختم الخوف هذه القائمة.

تغيّرت طباعي تجاهك، وبدأت هلوسات الماضي تطاردني محاولة إبعادي عنك، أصبح حبّي الّذي كان يتربّع في قلب صدري، يتحوّل إلى كراهية، لا تندهشي إن قلت إنّني بدأت

أكرهك، لكن ليس الكره الّذي نعرفه، لطالما قلت لك إنّني أحبّ الجمال الخارجيّ، ولكن لم أهمل يومًا الجمال الدّاخلي، كنت أحبّ العفويّة، ولكن أسوأ صفاتي هي ملاحظة التّفاصيل الدّقيقة الّتي جعلتني أغيّر نظرتي تجاهك من نظرة حانية إلى نظرة مليئة بالاحتقار والتّغطرس، كنت أطمح إلى أن تكوني سندًا لي، وتمنّيت لو كنت أفضل منّي لتساعديني على التّغيير نحو الأفضل، لكنّك أبيت أن تكوني سوى مجرّد فتاة مدلّلة، عصبيّة ومتظاهرة، محبّة لذاتك، تؤذين الآخرين دون سابق إنذار، لا أنكر أنّك أسعدتني في بعض الأوقات، ولكنّك محيت كلّ شيء بيننا، وجعلتني أعود إلى الوراء بخطوات عديدة، ممّا جعلني أستاء من أعذارك الّتي لا جدوى منها، لا تندهشي أكثر، لأنّك لم تتركي لي فرصة للمسامحة والتّصالح، ولم تبادلي الاهتمام الكافي، لذا هنيئًا لك.

ما زلت أحاول إغماض عيني، عسى أن أراك، فأرى كلّ شخص أعرفه إلّا سواك، لا يزال جزء منّي يتحدّى بقلمي، وجزء آخر يحاول نسيانك بقلبه، قرّرت أن أنهي علاقتي بك وأذهب إلى طريق آخر، ظنًّا منّي أنّي سأجد الخلاص، ولكن شوق الحنين لا يزال يعاتبني من كلّ الأبواب، كيف لك أن تزعزعي كياني دون كلمة واحدة وتتركيني أكتب رثائي دون عتاب؟ كنت أظنّ أنّني

المظلوم، لكن نظرة حانية منك من بعيد علّمتني أنّه لا يوجد لا ظالم ولا مظلوم.

غيرة:

إنّ الغيرة خلق كريم جبل عليه الإنسان السّويّ الّذي كرّمه ربّه وفضّله، وقد أعلى الإسلام قدرها وأشاد بذكرها، ورفع شأنها حتّى عدّ الدّفاع عن العرض والغيرة على الحريم جهاداً يُبذل من أجله الدّم، وقد سبق لي أن رجحت أنّ المرأة أشدّ غيرة من الرّجل، وحتّى في طريقة إظهارها إلى العلن أكثر عدوانيّة من الرّجال، لقد عشت عدّة مواقف ورأيت تصرّفات بعض الفتيات جعلتني أخشى من غيرتهنّ، لأنّ المرأة ستفعل أيّ شيء في سبيل إطفاء نار غيرتها، وحتّى إن اضطرت لقتل من تغار عليه في سبيل ذلك.

فعن جابر قال: قال أبو جعفر (عليه السّلام): "غيرةُ النّساء حسد، والحسدُ هو أصل الكفر، إنّ النساءَ إذا غرنَ غضبْنَ، وإذا غضبْنَ كفرنَ إلاّ المسلِمات منهنّ"، فالملازمة بين الغيرة والغضب ملحوظة، ولا تستطيع إنكارها أيّ امرأة، وهذا ما أظهرته العديد من البرامج الوثائقيّة الّتي أجرت مقابلات مع نساء

حُكم عليهنّ بالسّجن المؤبّد، ورأيت كيف كنّ يستمتعن وهنّ يتحدثن عن طرق قتل أزواجهنّ، من حرق وتسميم، ويؤكّدن أنّهن لم يندمن على فعل ذلك لأنّ غيرتهنّ قد جرحت كبرياءهنّ.

الغيرة عند النّساء تتراوح بين نوعين؛ إمّا غيرة الحبّ الحقيقيّ، وإمّا غيرة التّملّك، بينما الرّجال لديهم نوع واحد من الغيرة، والّذي بدأت تظهر ملامحه مع دخول العلمانيّة إلى مجتمعنا، خاصّة بين الشّباب خرّيجي الجامعات، فتراهم يعرضون أخواتهم أمام آلاف المشاهدين ولا يكتفون بذلك، بل قد يرقصون معهن أو مع زوجاتهم تحت شعار "كلانا يستمتع بزوجتي"، أين نحن من قول سعد بن عبادة -رضي الله عنه-: "لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسّيف غير مصفّح"، أصبحت أخشى أن يفقد الرّجل غيرته على أهله ودينه ومن جانب آخر، لا أنسى من يريد أن يعيش في أوروبا أو أمريكا، والّذي لم يدرس هذه القضيّة من كلّ الجوانب، لأنّ هناك يجب عليك أن تتخلّى عن غيرتك، يمكنك أن تكون ما تريد، ولكن ماذا عن ابنك الّذي سيتربى هناك وقد يحمل صفاتهم؟ فلا تلوم إلّا نفسك عندما يأتي يوم وتراه قد أصبح شاذاً، أو ابنتك الّتي قد تأتي يوماً ما وتقول إنّها ستتزوّج بفتاة أو بكلب، عفانا الله، هناك في تلك اللّحظة، لن

يسعك شيء، لأنّ القانون المدنيّ سيقف ويعطي الحقّ لهم، وستتخلّى عن غيرتك تجاه أبنائك، لذلك قلت ربّما غيرة المرأة أكبر من غيرة الرّجل، لأنّ المرأة تكتنف مشاعرها ولا تفهم فيها شيئاً، أذكر مرّة عندما كنت أدرس في الثّانوية، كنت أعرف صديقتين في كلّ ليلة يأتون إليّ على فيسبوك، وتبدأ كلّ واحدة منهما تسبّ في الأخرى كأنّني محكمة العدالة والشّكاوى، ولكن في الصّباح عندما ندخل الثّانوية أراهما يتصالحان ويتعانقان كأنّهما صديقتا العمر، فأقول لنفسي: هل هما نفس الفتاتين اللّتين كانتا تشتمان إحداهما الأخرى؟ لذلك المرأة أصعب لأنّها تخفي مشاعرها متى تريد وتظهرها متى تريد، بينما الرّجال يفضّلون تصفية الأمور على النّطاق الخارجيّ، يتعاركون أو يشتمون بعضهم البعض، وفي النّهاية إمّا يتسامحون أو يذهب كلّ واحد منهما في طريقه، غير هذا لا أعرف من هي المرأة فعلاً، أعود إلى نفس المسألة من جديد.

في العديد من الأحيان، يتغاضى الرّجال عن غيرتهم، ويعتبرون ذلك تقدّماً ورقيّاً، أو يتذرّعون بأنّ ذلك في سبيل إنجاح علاقتهم مع شريك حياتهم، على عكس المرأة الّتي قد تختار أن تعيش دونك بدل أن تعيش معك ومع غيرتها، فهي تستطيع إخفاء

حبّها أربعين سنة، ولكنّها لا تستطيع إخفاء غيرتها ساعة واحدة، تراها تشاجرك أيّاما فقط لأنّك ألقيت تحيّة على زميلة لك، أو نظرت إلى قوام فتاة وهي معك رغم أنّها تعرف أنّ الرّجال شهوانيّون في السّابق ولا يستطيعون غضّ أبصارهم عن الفتيات، إلّا أنّها تشاجرك وتعاديك بسبب غيرتها.

هناك خطّ رفيع بين الرّجل والمرأة، لأنّ غيرة الرّجل تكون أكبر عندما يتعلّق الأمر بالخيانة الجسديّة، بينما المرأة تكون غيرتها أقوى عندما يتعلّق الأمر بالخيانة العاطفيّة، وكذلك، فإنّ غيرته قويّة لكنّها قليلة، ولا يستطيع التّعبير عنها بطريقة مباشرة، على عكس المرأة الّتي هي كائن عاطفيّ وتكون الغيرة عندها شعوراً طاغياً وصعباً يجتاحها بسرعة، ممّا يجعلها أكثر ظهوراً وشيوعاً.

وفي النّهاية، أرى أنّ الغيرة نعمة لأنّها تحافظ على طهارة الجنس البشريّ وتحافظ على العلاقات، إلّا إذا أصبحت الغيرة مرضاً ووسواساً ومصدر شكّ، كما قال عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-: "لا تكثر الغيرة على أهلك، فترمى بالسّوء من أجلك"، وقال معاوية رضي الله عنه-: "ثلاث من خصال السّؤدد؛ الصّفح واندماج البطن وترك الإفراط في الغيرة".

سلبونا:

يندّدون بأنّ الإنسان مخيّر في كلّ بلدان العالم، ولكنّ العديد منهم لم يدركوا أنّنا قد سُلبنا حقّ الاختيار، على الرّغم من أنّنا نختار ما نريده في كلّ مرّة، إلّا أنّ الخيارات دائمًا ما تكون محصورة بين اثنين فقط، ممّا يجعلنا نتفادى اختيار خيارات متعدّدة قد لا تصبّ في صالحهم، هذه هي فلسفتهم لتفهم أكثر ما أعنيه، تخيّل معي أنّك تستقبل ضيفًا وليس لديك شاي، بل قهوة فقط، ماذا ستقدّم له؟ لن تسأله إن كان يريد شايًا أو قهوة، بل ستخبره إذا كان يفضّل قهوة سوداء أو قهوة بالحليب، هنا لم تعطه حرّية الاختيار بالكامل، بل فرضت على عقله أنّ القهوة هي الخيار الوحيد المتاح، وبالتّالي سيشطب الشّاي من قائمته، فإذا سألته سيقول إنّه اختار بنفسه ما يحبّ ولكن هل هذا صحيح؟

معظم ما يحدث لك تجد نفسك بين اختيارين لا ثالث لهما، وتظلّ مشتّتًا لا تعلم أيّ الشّيئين تختار، كنت تتمنّى لو وضعت لك خيارًا ثالثًا، قد يكون أقرب إلى ما تريد، أو أقرب إلى حلمك أو

شهوتك، ولكن هذه هي الفلسفة الّتي تقمع حياة المرء؛ يريدون التّحكّم في حياتنا وجعلنا مذلولين مهانون، متناسين أنّ لنا ربًّا وسعت رحمته كلّ شيء.

وفي ظلّ هذا، نجد أنّه رغم قلّة الخيارات لم نعد قادرين على اتّباع نسق معيّن بسبب تضارب الأفكار داخلنا، تخيّل كلّ تلك الاحتمالات الّتي يحملها كلّ عصب من عقلك، تتدفّق منك وإليك كشرارات كهربائيّة ناتجة عن حتميّة عدّة نتائج، تاركةً لك الكلمة الأخيرة رغم أنّها تقف عائقًا أمامك كشاشة سوداء تنتظر منها أن تتلوّن، وأنت تعلم أنّها لن تفعل، تلك التّضاربات في الأفكار هي ما يخلق تشوّهًا على مستوى ردود فعلك، على سبيل المثال، تخيّل أنّك وجدت نفسك عاريًا تمامًا أمام حشد من النّاس، أوّل ما ستفكّر فيه هو أن تبحث عن شيء يسترك، أما أنا فلن أبحث لأنّني ما دمت أمام حشد من النّاس دون سواي، فأكيد أنا مذنب أو متّهم، أنا خارج عن هذه المجموعة، وبالتّالي خارج عن قانونها، على الأقلّ في عيونهم، لذلك ما جدوى تغطيتي لنفسي؟ لأنّني في المقام الأوّل قد جُرِّدت من إنسانيّتي، وهنا لدينا نفس الوضعيّة، ولكن لكلّ واحد منّا ردّ فعله الخاصّ بسبب الأفكار الّتي تحدّد الخيارات المتاحة لنا.

كما قلت سابقًا، لا يمكننا جميعًا أن نرقص على نفس الإيقاع، لأنّ حياة كلّ واحد منا متعلّقة باختياراته وأفكاره، لا نستطيع أن نطبّق تمامًا ما فعله شخص مع آخر رغم أنّهما في نفس الموقف وننتظر نفس النّتيجة، لذلك لا تندهش إذا نصحت شخصًا ولم يفعل ما طلبته، رغم أنّه هو من طلب منك حلّاً لمشكلته، فكلّ شخص يرقص على النّغمة الّتي يحبّها وما يجذبني في هذه المسألة هو أنّه لا يمكنك السّيطرة على نتائج اختياراتك، ربّما تميل إلى اختيارات لم ترضَ بها، ولكنّها تؤدّي إلى نتائج جيّدة، والعكس صحيح، فلا يوجد منطق هنا وهذا ما أحبّه في هذه الحياة اللّامنطقيّة.

عوامل:

إنّه فصل الصّيف، ولا أحبّ تناول الفاكهة الموجودة في الثّلاجة؛ لأنّني أحبّ أن أقطفها مباشرة من الشّجرة، أجدها لذيذة، ربّما لأنّني أتعب عليها، توجّهت إلى شجرة التّين وقرّرت أن أقطف واحدة قريبة، لكنّني نظرت إلى أعلى فوجدت حبّات أجمل منها، بدأت أتسلّق الجدار بصعوبة؛ تارة أسقط وأعود من جديد، حتّى توقّفت فجأة وسألت نفسي: هل تستحقّ هذه الفاكهة كلّ هذا الجهد؟ هل تستحقّ سقوطي ونهوضي وكلّ ما بذلته من جهد؟ قلت: نعم، وواصلت تسلّقي حتّى قطفت الحبّات، غسلتها وبدأت أكلها، عند أول قضمة، قلت في نفسي: نعم، تستحقّ.

ما يوقف الإنسان في العديد من المرّات ليس ضعفه أو قلّة حيلته، بل هو معرفة في قرارة نفسه بأنّ الشّيء أو الحلم أو الشّخص لا يستحقّ أن نقاوم من أجله وأن نضحي من أجله، فالإنسان دائمًا يبحث عن دوافع تجعله يقاوم، تجعل كلّ عضلة من جسده تضاعف تنفسها واستنفاذها للطّاقة، كي يبذل جهدًا

أكبر، خاصّة أنّ الشّيء الّذي لا يكون في متناول الجميع والّذي يكون الوصول إليه صعبًا يكون له طعمه الخاصّ عندما نملكه لأنّنا تعبنا من أجل الوصول إليه، ولكن هل يستحقّ ذلك؟ عندما تعرف الجواب، إمّا أن تأخذك نشوة الانتصار وتنسى كلّ ما عانيته من أجل الوصول، وإمّا ستندم على كلّ خطوة خذتها للوصول إليه، لذا عليك قبل أن تقرّر أن تسأل نفسك: هل يستحقّ ذلك؟

وما أكثر السّلوكيّات الّتي تدفع الإنسان للتّقدّم إلى أماكن لم يصل إليها أحد، وللقيام بأشياء لم تخطر على البال، متجاوزًا حدودها، فالإنسان رغم القيود المحيطة به مثل العائلة والعمل والمسؤوليّات، تراه يتخلّى عن كلّ ذلك في صباح يوم ما، لأنّ الفضول قد أرهقه فيودّ أن يتسلّق قمة إيفرست، ليس بحثًا عن الشّهرة أو المال، وليس لأنّه مجنون، بل لأنّ الفضول لمعرفة القمّة الّتي لم يتسلّقها أحد كيف هي، وكيف كان الطّريق إليها، وكيف لم يستطع أحد من قبل الوصول إليها ويبدأ إنزيم الأدرينالين بالتّدفّق بسرعة نحو جسمه مع كلّ سؤال يطرحه، فتزيد الرّغبة في الذّهاب إلى تلك القمّة متجاهلًا كلّ من ماتوا محاولين الوصول إليها والمخاطر الّتي قد تنجم عن ذلك، وهذا ما

حدث، على سبيل المثال، لأوّل متسلّق لقمّة إيفرست، إدموند هيلاري، ففي المرّة الأولى، فشل في تسلّق قمة إيفرست، وخلّف ثلاثة من رفقائه أمواتًا عند سفح الجبل، ولكن لمجهوده الكبير منحته الحكومة الإنجليزيّة أرفع أوسمتها، واستدعته للمثول أمام البرلمان، بينما كان يدخل البرلمان لتكريمه، وقف الجميع وصفّقوا له ومع توجّهه نحو صدر القاعة، كانت هناك صورة لقمّة إيفرست، تجاهل السّيّد إدموند هيلاري الجميع، ووقف مباشرة أمام تلك الصّورة للحظة، ولوّح بقبضته مخاطبًا جبل إيفرست قائلاً: "لقد ربحت أنت هذه المرّة، أنت كبير بقدر ما ستكون، ولكنّي أنا الأكبر دائمًا"، وهنا قد يتدخّل سلوك آخر وهو الإصرار، ولا أستبعد أيضًا عامل العناد، الّذي يدفع الإنسان إمّا إلى الموت أو إلى النّجاة والفوز، وهذا ما حدث لمتسلّق إيفرست، حيث في تمام السّاعة 11:30 صباحًا في 29 مايو 1953، نجح إدموند هيلاري في محاولته الثّانية لتسلّق قمّة إيفرست، وأصبح بذلك مع تينسينغ نورغاي أوّل رجلين يصلان إلى أعلى قمّة إيفرست، متحدّيين بذلك الارتفاع وانخفاض الضّغط والبرودة الّتي تصل إلى حدّ التّجمّد، ومخاطر الانهيارات الثّلجيّة وكلّ مخاطر التّسلّق، وهنا أرى أنّ عامل الإصرار لدى إدموند هو ما جعله ينجح، وليس الفضول فقط، رغم أنّ الفضول له نصيب

أيضًا لأنّه دفع إدموند للخروج من قوقعته والقيام بشيء لم يكن يرغب في فعله شخص سليم.

وفي نفس السّياق، هناك عامل آخر وهو الجشع، الّذي في أغلب الأحيان يأخذ الإنسان إلى حافة الانهيار، فأنا أؤمن أنّنا وُلدنا جميعًا شجعانًا، نثق بالنّاس وطماعين، ولكن في النّهاية نخسر معظم هذه الصّفات الأولى والثّانية ونبقى طمّاعين، تلك الرّغبة في امتلاك كلّ شيء أو الحصول على أكثر ممّا لدينا، متخلّين عن كلّ شيء في سبيل تحقيق ذلك، وقد استغلّ هذا العامل العديد من الشّركات الرّأسماليّة الّتي تميّزت بالتّقدّم في الثّروات والإنجازات الماديّة.

قلت سابقًا إنّ الجشع يدفع الإنسان إلى هاوية، على عكس العوامل الأخرى، لأنّه يعمل كمحفّز ولكن أيضًا كإدمان يمنع الرّغبة في كسب المزيد والمزيد، ممّا يؤدّي إلى نهايات لا تنتهي أبدًا، وربّما حتّى بعد الحصول على ما تمّ البحث عنه في البداية، يمكن للطّمع أن يقود الشّخص بسهولة إلى تطوير مشكلة نفسيّة خطيرة وتوليد أنواع مختلفة من المشاكل على المستوى الاجتماعيّ والعاطفيّ.

أعرف جيّدًا أنّ من افتتح الكازينوهات كان يعلم هذا العامل جيّدًا، حيث أراد إفراغ جيوب النّاس دون الحاجة إلى القتل أو السّرقة، بل فتح قاعات القمار وترك الجشع والطّمع يلعبان دوره، متلقّيًا المساعدة من إنزيم الدّوبامين الّذي يؤثّر على دماغ الشّخص المقامر، حيث يعرض أمواله للمخاطرة، فتتأثّر كيمياء مخّه، ممّا يؤثّر على نفسيّته تأثيرًا كبيرًا، وكما هو معلوم، فإنّ الدّوبامين مادّة كيميائيّة تؤثّر على الكثير من الأحاسيس والسّلوكيّات بما في ذلك الانتباه والتّوجيه وتحريك الجسم.

تذكّرت أيضًا قصّة قصيرة معبّرة عن الجشع وعاقبته؛ قصّة الأفعى والحطّاب وابنه الجشع، يروى أنّ رجلاً كان يذهب إلى الغابة ليجمع الحطب ليبيعه ويطعم أولاده، يومًا ما جلس يستريح وأخرج نايه، فعزف عليه وصوت النّاي كان شجيًّا وجميلًا، أثناء ذلك خرجت أفعى ضخمة من جحرها، ففزع الرّجل وهبّ واقفًا يريد الهرب، فقالت له الأفعى: "لا تخف، فإنّ جمال عزفك أشجاني وأراح نفسي، فهل لك كلّ يوم أن تعزف لي وتعطيني دينارًا ذهبيًا؟" قال: "أجل"، بدأت رحلة العزف، حيث كان الرّجل يخرج كلّ صباح ويعزف للأفعى، فتخرج له دينارًا فيأخذه الرّجل ويعود به إلى منزله سعيدًا.

وفي يوم، مرض الرّجل وعجز عن القيام، فقال لابنه: "اذهب إلى أرض كذا، واعزف على نايك اللّحن الفلاني، ستخرج لك أفعى فتعطيك دينارًا، فخذ الدّينار واشتر به طعامنا"، ذهب الولد وفعل كما أمره أبوه، فخرجت الأفعى وأعطت الدّينار، وهكذا استمرّ الحال كلّ يوم، حتّى ملّ الولد وقال: "سأقتل الأفعى وأخرج الكنز دفعة واحدة، ولا أبقى على حالة الاستجداء هذه"، وجاء في اليوم التّالي، فعل كما فعل، وخرجت الأفعى، ولكنّه حاول قتلها بضربة فقطع ذيلها، لكنّها سارعت بلدغه وقتلته.

وبعد زمن عاد الرّجل إلى العزف، وفي آخر المطاف، خرجت الأفعى وقالت له: "لقد سامحتك ونعود لسيرتنا الأولى"، أعطته دينارين وقالت: "يا صاحبي، لا ترجع إلى هنا ثانية، فإنّك عندما تراني لن تنسى ابنك، وعندما أراك لن أنسى ذيلي"، هذه هي عاقبة الطّمع والجشع.

تلك المعادلات الكيميائيّة الّتي تحدث في جسم الإنسان لها تأثير قويّ على مسار حياته، كلّ عامل يحدّد نمطًا مغايرًا للكيفيّة الّتي يمارس بها الإنسان حياته، لذا من الأفضل أن نعرف كيف نستغلّ كلّ عامل حسب كلّ موقف، ونقيم كلّ وضعيّة قبل كلّ شيء.

ما بين العقل والقلب:

في عالم تتلاطم أمواجه بين العقل والقلب، نعيش صراعاً يومياً يختبر نضجنا ووعينا، العقل بكينونته الصّلبة يمثّل لنا قوّة التّحليل والمنطق؛ هو الّذي يضع الأسس والضّوابط، كحسابات التّكاليف في السّوق الجزائريّة، حيث تجتمع الأرقام لتحدّد مصير التّجارة واستراتيجيّاتها، هو ذلك الصّوت الدّاخلي الّذي يطلب منّا وضع خطط مستقبليّة وتقدير العواقب، كما هو الحال في قرارات الشّباب الجزائريّ الّذي يسعى لتحقيق الاستقرار الماليّ ومواصلة الدّراسة رغم الظّروف الصّعبة.

أمّا القلب، فيغدو مملكة للأحلام والعواطف، حاملاً في طيّاته تذكرة للذّكريات والمشاعر العميقة الّتي لا يمكن للعقل أن يفسّرها، هو ذلك النّبض الّذي يشعل الحماس فينا خلال الاحتفالات التّقليديّة مثل مهرجان "تيمقاد" أو في الأعياد الوطنيّة، حيث تملأ الموسيقى التّراثيّة والرّقصات الشّعبيّة الأرواح بالدّفء

والفرح، بعيداً عن الحسابات الجافّة والبراغماتيّة الّتي قد تطغى على حياتنا اليوميّة.

في المجتمع الجزائريّ، هذا التّنازع بين العقل والقلب يظهر بوضوح في مواقف عدّة، على سبيل المثال، يواجه الشّباب الجزائريّون تحدّيات بين الرّغبة في متابعة أحلامهم الفنيّة، مثل الشّغف بالموسيقى الأندلسيّة أو الحرف التّقليديّة، ومتطلّبات العمل والدّخل الثّابت، العقل يقول لهم: "استثمروا في وظائف آمنة"، بينما القلب يصرّ على: "اتّبعوا شغفكم واحتفظوا بجذوركم الثّقافيّة"، يتّضح هذا الصّراع أيضاً في العلاقات الاجتماعيّة، حيث يُشدّد على أهميّة الاستقرار والالتزام، لكن القلب يرفض القبول بالتّقاليد الّتي تقيّد الحبّ والحرّية الشّخصيّة.

وهناك مثال آخر في الحياة اليوميّة، حيث نرى كيف يلعب العقل دوراً في مواجهة الصّعوبات الاقتصاديّة، بينما يستمرّ القلب في البحث عن لحظات السّعادة والرّاحة في تجمّعات الأسرة والأصدقاء، مثل الجلسات العائليّة حول المائدة في شهر رمضان، حيث يتجاوز النّاس التّحديّات الماليّة ليحتفلوا بقيم العطاء والمحبّة.

التّوازن بين العقل والقلب ليس مسألة سهلة، لكنّه ضروريّ لتحقيق حياة متكاملة ومرضيّة، عندما نتمكّن من مزج التّحليل العقلانيّ مع التّجربة العاطفيّة نخلق توازناً يمكننا من مواجهة تحدّيات الحياة بحكمة وبصيرة، ففي النّهاية ما بين العقل والقلب هو ذلك النّسيج العميق الّذي يشكّل تجربتنا الإنسانيّة، يربط بين القيم التّقليديّة والتّطلّعات الحديثة ويجعلنا نعيش لحظات من النّقاء والصّدق في عالم معقّد ومتغيّر.

ما بين العقل والقلب هو ذلك الحيّز الّذي يسكن فيه الإنسان الجزائريّ، حيث يختبر ثراء ثقافته وصبره ويبحث عن الطّرق الّتي تتيح له تحقيق التّوازن بين الطّموحات والاحتياجات الإنسانيّة، في رحلة لا تنتهي للبحث عن الّذات وتجسيد القيم العميقة الّتي تحدّد من نكون.

دع القلق:

في مسرحيّة الحياة اليوميّة، حيث نؤدّي أدواراً تتراوح بين الشّحاذ والبطل، يزحف القلق إلى مسرحنا كضيف غير مرغوب فيه، هناك في زوايا منازلنا المزدحمة وبالقرب من أرصفة الحياة، يتسلّل القلق إلى قلوبنا مثل سارق خلسة، يسرق منّا لحظاتنا السّعيدة ويمنعنا من النّوم، هل تساءلنا يوماً لماذا نعطي هذا المخلوق المزعج هذه السّلطة علينا؟ هل نحن ضحايا في مسرحيّة دراميّة قذرة حيث نحن فقط كومبارس بلا وزن؟

خذ مثلاً من حياة يوميّة في الجزائر؛ فاطمة، تلك الأمّ الّتي تقف كلّ صباح في طابور المخابز، تتعثّر على أمل أن تحصل على قطعة خبز تسدّ جوع عائلتها، تتبادل نظرات يائسة مع نساء أخريات، كأنّهن جيوش مكسورة تسعى لحمل عرش الخبز، يتسرّب القلق من وجوههنّ كما يتسرّب الضّوء من بين أصابع اليدين، هنا يصبح القلق سيّد الموقف، يضع يدها الثّقيلة على كلّ

لحظة من لحظات اليوم، وتصبح حياة هذه النّساء قصّة حزينة ترويها الأرصفة كلّ مساء.

دعنا نعرّج على حسين، عامل بسيط من حيّ شعبي آخر، حسين يشابه فاطمة، لكنّه يقاتل من أجل راتب يوميّ لا يكفي حتّى لتغطية نفقات الكهرباء، بينما كان حسين يبتسم لأطفاله، في قمّة التّحدّيات الّتي تواجهه كان القلق ينسج خيوطه حول قلبه، ولكن في إحدى الأمسيات بينما كان يجلس بجانب عائلته لتناول وجبة عشاء بسيطة أدرك حسين فجأة أنّ القلق لا يمكن أن يكون شريكاً دائماً في حياته، رأى ابتسامات أبنائه، سمع ضحكاتهم، وفهم أنّ القلق هو مجرّد عبء زائد، يشبه حقائب ثقيلة يجبرنا العالم على حملها بينما نسير نحو المجهول.

دع القلق، هو ليس مجرّد شعار؛ إنّه مقاومة للواقع القاسي، إصرار على أن نعيش حياة مليئة بالفرح، حتّى عندما تكون الحياة قاسية كما زجاج نافذة مهشمة تذكّر كيف أنّ الاحتفالات الجزائريّة من مهرجان "تيمقاد" إلى الأعراس التّقليديّة تتحوّل إلى ملذّات مفعمة بالحياة في عالم قاتم، في هذه الاحتفالات ينزلق النّاس في عالم من الألوان والأصوات، يرقصون كما لو كانوا يرقصون على حافّة الهاوية، يفرحون وكأنّ كلّ يوم هو آخر يوم

في حياتهم، هناك في خضمّ الضّحك والرّقص يتلاشى القلق كدخّان معطّر يذوب في الهواء.

وفي قلب تلك اللّحظات الّتي ينعشها الفرح، تكمن الحقيقة؛ الحياة ليست عبارة عن سلسلة من اللّحظات المظلمة، بل هي أيضاً رحلة مليئة بالألوان عندما نختار أن نحرّر أنفسنا من قبضة القلق، نفتح أبواب قلوبنا لتجارب جديدة، نحتفل بكلّ لحظة كما لو كانت هديّة ثمينة، عندما نرفض أن يكون القلق سيّد حياتنا، نسمح لأنفسنا بأن نعيش بكلّ قوّة، لنستمتع بكلّ لحظة كما لو كانت نهاية عالمية.

في النّهاية دع القلق هو بمثابة دعوة للعيش بحريّة وببساطة، دعوة للتّخلّي عن الأعباء الّتي تثقل كاهلنا ولإعادة اكتشاف جمال الحياة في كلّ تفاصيلها، لا تترك القلق يكون حارس سجنك، بل حوّله إلى صديق خياليّ يذكّرك بأنّ الحياة ليست فقط عن التّحديات، بل عن كلّ لحظة من الفرح والإبداع الّتي نتركها تمرّ دون أن نلاحظها، دع القلق يرحل واستقبل الحياة بكلّ ما فيها من جمال وشغف.

ما بين هذا وذاك:

ما يلفت انتباهي ويثير سخريّتي إلى حدّ التّعاسة هو تلك الفئة الغالبة في المجتمع الّتي تمتدّ سيطرتها إلى كلّ المجالات، متظاهرة بدور الآمر والمتحكّم، ممّا يجبر الفئة المثقّفة على اتّباعها كالقطيع، متخلّية عن كلّ مبادئها رغم سعيها الجاهد إلى التّميّز والانفراد بنفسها، ولكن دون جدوى، إذ أصبح يُنظر إليها على أنّها حالة شاذّة في المجتمع، شرذمة تحاول الانشقاق عن الطّريق السّائد.

لقد حاولت جاهداً أن أكون من تلك الفئة القليلة، لكنّ الأمور لم تسر كما كنت أطمح، حاولت مقاطعة سلعة ارتفع سعرها، لكنّي كدت أجوع لأنّ الأغلبيّة اشترت ضعف الكميّة في حالة عاديّة، حاولت الانتظار في طوابير المخابز حتّى كدت أعود إلى المنزل خالي الوفاض، لأنّ الأغلبية تصرّفت بشكل همجيّ، حيث يأتي الأخير قبل الأوّل، والأوّل يصبح في النّهاية الأفضل، كما حاولت عدم الازدحام عند الحافلات، ولكن بعد ثلاث ساعات لم أتمكّن

من ركوب الحافلة، فاضطررت للاندماج مع الآخرين، ممّا جعلني أدوس على الأقدام وأدفع النّساء، إنّهم يجبرونك على أن تكون مثلهم ولا خلاص لك بعد ذلك أو قبله، وكان عليّ أن أقبل بأنّني جزء منهم ما دمت أعيش بينهم.

تلك الفئة الّتي تكاد تظنّ أنّها على صواب وعلى دراية بكلّ الأمور لا تستطيع تغيير الواقع، لكنّها قادرة على تغييرك لأنّها تتبنّى نقطة التّأثير بفضل أغلبيّتها وتعمل على عزل الفئة القليلة حتّى تعلن ولاءها الكامل لها.

الأغلبيّة هذه لن تكون موضوعيّة، ولن نجدها تتجنّب قول "نعم" أو "لا" في غياب البراهين والأحكام، بل تتبنّى أحكامها بناءً على نزواتها، لا تميّز ولا تفكّر، مجرّد قطيع ينحاز وراء كلّ ما يثير شهواته، القطيع من الفنّانين أو المتحايلين الّذين يتظاهرون بالأخلاق العالية والبراءة المزيّفة، ويكادون يصدّقون أنفسهم أنّهم على قمّة الأخلاق والعلم ويمتلكون الحقيقة المرّة بعيداً عن تلك الأقلّية، لأنّهم يخافون من اليوم الّذي تتولّى فيه تلك الفئة الحكم، يسعى القطيع جاهداً إلى تقبيح شغف وقوّة تلك الفئة وإخفاء ضوءها الّذي يكاد يخطف الأنظار بكلّ الأساليب، مع

محاولات الضّغط وتغليط الرّأي العامّ نحوها وتحويلها إلى قطعة أثريّة قديمة تُستمتع بجمالها ولكن لا يمكن الحصول عليها.

هل سيأتي يوم ويصبح المجتمع منصفاً وعادلاً؟ لا أظن، هل سيأتي يوم ونشاهد أصحاب العلم يُكرّمون ويُعطون احتراماً أكبر من المغنّين؟ لا أظن، هل سيأتي يوم ونرى على شاشات التّلفاز من هم أعلى مقاماً في العلم والدّين وقد تجاوزت نسبة مشاهداتهم تلك الخاصّة بالأفلام والبرامج الفكاهيّة الّتي تفتقر إلى الفكاهة؟ لا أظن، هل سيأتي يوم ونرى على جدران الشّوارع تواريخ المؤتمرات الدّينيّة والثّقافيّة بدلاً من تواريخ الحفلات الموسيقيّة؟ لا أظن.

أنت تقول -حتّى إن كنت قد حضرت حفلة موسيقيّة- لا أنكر ذلك، ولكن هل كان لديّ خيار بين حضور مؤتمر للكتّاب الدّوليين وحضور حفلة موسيقيّة؟ لم يكن هناك خيار، وهذا ما تحدّثت عنه سابقاً، لا يمنحونك كلّ الخيارات، بل يتحكّمون في اختياراتك لتكون مثل القطيع، سواء من العائلة أو الأصدقاء أو المجتمع، حتّى وإن اخترت الذّهاب إلى حفلة موسيقيّة، هناك فئة قليلة تتمنّى حضور مؤتمر دينيّ أو ثقافيّ، ألا يحقّ لي أن أتكلّم عن تلك الفئة

وليس عن نفسي؟ لهذا أجبتك عن سؤالك، قلت لك سابقاً إنّني لست كاملاً، ولكنّني أحاول جاهداً أن أكون من تلك الفئة القليلة.

دراما زائدة:

بينما كنت أنتظر دفع مذكّرة التّخرّج داخل الجامعة، جلست بقربي فتاتان، بعد تبادل التّحيّات والعناق، بدأت إحداهما تحدّث الأخرى عن علاقتها بصديقها، لم أسترق السّمع، لكن حديثها دخل إلى أذني قسراً، كانت تشتكي من أنّ صديقها لا يترك لها فرصة لتعيش "حلاوة الشّجار"، ولم أفهم ما تعنيه بـ "حلاوة الشجار"، ولكن يبدو أنّ الفتيات لا يفهمن شيئاً في هذا المجال، كانت تشتكي من أنّه بعد أيّ مشاجرة، يبادر هو بطلب السّماح منها بسرعة ولا يترك لها فرصة لتعيش دراما الشّجار، مثل تلك الّتي نراها في المسلسلات التّركيّة، من حظر وعدم مبالاة وكلام بارد، وغيرها من الطّقوس الغريبة.

كذلك كانت تشكو من أنّ صوته يسبّب لها ضجيجاً في أذنيها حتّى تضطرّ إلى إزالة أحد سمّاعات الأذن، كنت أسمع كلامها وأرى أنّها تعتبره الحلقة الضّعيفة في علاقتهما، كانت تتذكّر كلّ هذه التّفاصيل عن ظهر قلب، كأنّها تجمع أسباباً لتشتيت العلاقة،

بدلاً من أن تصارح صديقها بما تشعر به وتحاول إصلاح العلاقة تفضّل الشّكوى وأعرف لماذا، لأنّها تظهر نفسها وكأنّها تستحقّ هذا الشّاب بينما هي المثاليّة، لو كانت جريئة، لذكرت عيوبها أيضاً، لو كنت أعرف صديقها، لربّما جلبته هنا ليذكر عيوبها، ولنعرف من سيفوز بجائزة أسوأ طرف في العلاقة، تبّا لهذه العلاقات!

أيّتها الفتاة، ماذا ستفعلين إذا تزوجت في النّهاية؟ هل ستستمرّين في الشّكوى للنّاس عن زوجك وتفشين أسراره مثل رائحة قدميه وسمنته ورائحة فمه في الصّباح وغيرها؟ أم أنّك تنتظرين أن تتزوّجي من ممثّل يقبّلك في الصّباح وكأنّ رائحة فمه دائماً عطرة ويستيقظ من السّرير وملابسه غير مجعّدة وكأنّه نام على الهواء وترين وجهه مشرقاً بفضل إضاءة الكاميرات؟ كفانا شتماً، فأنا ضقت ذرعاً بهذا، ومن أنتِ أصلاً؟

هل ستقبلين بزوج مثل هذا أم أنّك ستهربين إلى رجل آخر لأنّ زوجك يحمل تلك الصّفات؟ نحن دائماً نبحث عن فرصة أخرى بدلاً من إصلاح الفرصة الأولى، نحبّ أن نجد أعذاراً ونقائصا من طرف الآخر، ونريد أن نري للعالم أنّنا الأفضل ونستحقّ الأفضل، بينما نحن في الحقيقة أسوأ، نحبّ أن نكون

مع الأفضل، لكنّنا لا نريد الأسوأ معنا، نحن كائنات أنانيّة، كلّ ما يهمّنا هو إظهار محاسننا وإرضاء ضميرنا والكلّ مزيّف، الحمد لله أنّنا لا نعرف ما يخفيه الآخرون، لأنّني متأكّد أنّ الجميع في نهاية المطاف سيبقى وحيداً.

شكراً لكِ أيّتها الفتاة لأنّك ذكّرتني بحقيقتنا مرّة أخرى، أتمنّى لك حظّاً أوفر مع شاب آخر يمتلك صوت جاستن بيبر، ويغرقك في دراما تركيّة وهنديّة، ويضع طلاء الأظافر، وتبكين معه عند كلّ خلاف وتتشاورين معه حول...

الخاتمة:

وفي الختام، أيّها القارئ العزيز قد تكون هذه الصّفحات من كتابي بمثابة رسالة مشفّرة، تحتوي على صور تذكاريّة وملاحظات خفيّة تُعبّر عن بؤس الحياة ورؤيتها من خلال عدسة كوميديّة سوداء، فالحياة كما نعلم جميعًا ليست إلّا مسرحيّة هزليّة تُعيد نفسها بتكرار ممجوج، حيث نؤدّي أدوارًا مكتوبة مسبقًا من قبل كاتبٍ لم يرحمنا قطّ.

تدور الأحداث، تتغيّر الشّخصيات، ولكنّ الحقيقة الّتي لا مفرّ منها هي أنّ كلّ محاولاتنا للتّغيير وتحسين الذّات هي مجرّد فصول إضافيّة في كتابٍ مفتوح على مصراعيه، يقرؤه الزّمن ببرود ويعكف على تدوين تفاصيله دونما اهتمام.

لذا بينما ننغمس في أعباء الحياة ونحاول أن نبحث عن المعنى في صخبها، لنذكر دائمًا أنّنا أبطال في مسرحيّة سوداء، حيث

يُضحكنا الواقع على مآسينا ويُلهينا عن الحقيقة المرّة بأنّنا جميعًا نبحث عن هدف في محيط لا نهاية له من السّخف.

إلى جميع من كانوا جزءًا من رحلتي والّذين أضافوا لمسيرتي لمسة من الجنون والفوضى، أقول: شكرًا على التّصفيق، وشكرًا على عدم التّدخّل في النّصوص المنقّحة، فبفضلهم كانت القصّة أكثر إثارةً وأكثر كوميديّةً وأكثر سوداويّة، ولعلّنا جميعًا نخرج من هذا المسرح بنفس الصّفة الّتي دخلنا بها؛ بحثًا عن لحنٍ مفقود في أوركسترا الحياة اللّامتناهية.

آمل أن تعكس هذه الخاتمة مزيج الفكاهة السّوداء والفلسفة الّتي تبحث عنها.

الفهرس